محمد حسن بريغش

ظاهرة الردة

برهان

في المجتمع الاسلامي الأول

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

إلى الذين يرتادون الطريق صابرين ويواصلون المسير مسترشدين فإذا أضناهم المسير لجأوا إلى الله مستظلين وإذا لاح لهم الظفر أنابوا إلى الله شاكرين .

وهم في كل حال لا يبتغون سوى مرضاة الله عز وجل ولا يرضون بغير الحق مهما لاح لهم من صعاب .

إلى هؤلاء الفتية المؤمنين أقدم هذه الدراسة .

محمد حسن بريغش

تمهيد

إن مهمة إنشاء مجتمع جديد عملية صعبة وشاقة ، وتحتاج الى جهود مستمرة مخلصة ، وتضحيات بالغة ، وتقتضي نوعاً من المحن المتتابعه، تبدأ من وقفة المجتمع القديم الغاضبة ضد أصحاب الدعوة ، وتنتهي ببذل الروح وقتل الأنفس في سبيل ذلك .

وهكذا كان طريق المجتمع الاسلامي طريقاً مرسوماً وفق سنن الله في الحياة ، ونواميس الكون في ولادة المجتمعات المتحضرة . يبدأ من الكلمة التي تحمل كل معاني الايمان والصدق والثبات ويستمر في طريق الجهاد العنيف ضد معوّقات البناء ، وعقبات الطريق .

ولدى دراستنا لحركة المنهج الرباني في اعداد النفوس المؤمنة وطبيعته في انشاء المجتمع الاسلامي ، نمر بظروف وظواهر

وأحداث ، وكلهـا ذات دلالات قيمة ، يستفيد منهـا المسلم المعاصر في طريق دعوته ، ويستلهمهـا في تطبيق منهج البناء الفريد للمجتمع ، الذي خصه الله بميزات أساسية ، تفرده عن بقية المجتمعات الانسانية الأخرى . وأولى هذه الخصائص أنه يقوم على أساس منهج رباني شامل متكامل ، يعتمد على فكرة العبودية الخالصة لله – سبحانه وتعالى – في كل الأمور والشؤون والأحوال ، وافراد الله سبحانه وتعالى بالحاكمية المطلقة ، في خاصة الشؤون وعمومها ، في الدنيا والآخرة .

ويعتمد في نسج خيوطه على فكرة الايمان بالله ، ايماناً يشع ليكون نظاماً لحياة الانسان في كيانه الخاص وسلوكه في الحياة، وفكرته عن الخالق والخلائق ، والكون كله ، ويستتبع هذا الايمان الثقة المطلقة بالله رباً والهاً ، ومهيمناً على الوجود كله ، بيده الأمر من قبل ومن بعد وهو القادر الرزاق المحيي والمميت ، العليم السميع البصير ، وإليه يعود شأن الكائنات والحياة .

ومن ثم فالعودة إليه ، والرجاء في مرضاته ورحمته دون سواه ، والتوجه والغاية محصور في الفوز برضـاه ، والالتزام بمنهجه وشرعته للفلاح عنده والنجاة من عذابه . أما العلاقات في هذا المجتمع فإنها تقوم على قاعـدة الأخوة حيث ينضوي تحت معانيهـا المساواة الانسانية ، والتكريم الالهي لبني آدم والصدق والعدل في المعـاملة ، والتسامح والايثـار ،

والتضحية في سبيل الله تطبيقاً لمعنى هذه الأخوة . وهي – في مدلولها وواقعها – أعمق وأمتن من أية روابط أخرى عرفتها البشرية في مجتمعاتها وعصورها ، لأنها استطاعت أن تلغي كل العلاقات القديمة القـــائمة على روابط اللون والجنس والأرض وغيرها لتحل هذه الرابطة القائمة على مقومات العقيدة الربانية بما لها من ايحاءات ومدلولات في كيان الانسان والمجتمع .

وألغت فكرة الأخوة آثار العلاقات السابقة – رغم ارثها التــــاريخي – بمـدة وجيزة في المجتمع الاسلامي ، لأن فكرة الأخوة ، ارتبطت وواكبت فكرة الايمان بالله سبحانه . وكانت « عقدة » الرابطة الهية مباركة ، فما ان « تعقد » حتى يستصغر المسلم في سبيلها كل شيء ، ويستسهل أن يتنازل عن كل غال من أجلها .

هذه المميزات الخاصة بالمجتمع الاسلامي ، لم تكن نظريات أو فلسفة عقيمة ، مطروحة لبرودة الأذهان ، أو مغـــارات الأفكار المظلمة ، وإنمـــا تكاملت وتأصلت برعاية رب الناس وضمن أطر واضحة ومؤثرة من الواقع والأحداث التي جرت خلال ثلاث وعشرين سنة في حيـــاة رسول الله ﷺ ، وفي المراحل الاسلامية التي أعقبت وفاته عليه السلام .

وكانت هذه الخطوات متتـــابعة ومتميزة ، في سلم سامق تحيطها ظروف صعبة ومعقدة ، وضمن احتمالات شتى ، كل هذا

لتكون عملية الانشاء والبنـــاء عملية أصيلة وثابتة وعميقة في جذورها ، لا تفاجئها أية احتمالات جديدة عبر حياتها في هذا الكون دون أن يكون لديهـــا قدرة الاحتمال والمواجهة ، والاهتداء الى السبيل القويم .

وهذه الخطوات التي تتابعت برعاية الله عز وجل ، مرت بالظواهر الحياتية ، والاحتمالات المعوّقة قبل أن تنتهي الى تمامها وتكاملها أو تستقر بصورتها الرائعة في حياة البشرية .

وحري بالمسلمين الذين يتطلعون الى انشاء مجتمـع اسلامي – وهم يعـــانون من ظروف الانشاء الصعبة – حري بهم أن يمروا بهذه الظواهر والخطوات ، باحثين مبصرين ، ينقبون عن الدقائق ، والاحتمالات ، والسبل المأمونة التي كونهـا الاسلام ضمن وقائع حياتية ، وظروف مشابهة .

وبهذا تكون هذه الظواهر معـــالم وصوى وارشادات لهم في الطريق .

ولعل كثيراً من الآلام والقلق التي تعصر قلب المسلم ناتجة عن هذه الظروف والمفاجآت والعوائق التي تقف في سبيله كلما تقدم خطوة في الطريق ، وعند كل شأن من الشؤون .

هذا فضلاً عن مظاهر الضعف الأخرى التي تكتنف عملية البناء الفردي – نفسياً وفكرياً وسلوكاً – والتي تكون البدهية

الأولى ليكون المسلم مهيئاً للوقوف في الصف الاسلامي المتطلع نحو مستقبل مشرق .

فإذا حاولت – اليوم – تحليل ظاهرة الردة في المجتمع الاسلامي الأول – من خلال عرضها ومتابعة أحداثها وما أحاطها من أمور سبقتها أو رافقتها أو نتجت عنها فإنني ألتمس – بهذا – وضع هذه المعالم وتبيان الأسس التي تساعد في صيانة عملية البناء .

إنني أتطلع الى استخلاص بعض النتائج المعنية التي ترشد المسلم فلا يضل في خضم الجزئيات التي قد تلهي المسلم – أحياناً – وتستهلك كثيراً من جهده ، وتلهيه عن عملية البناء الأساسية ، ومواصلة الطريق عبر هذه الظروف الصعبة .

وأسأل الله تعالى أن يعينني على كشف هذه الحقائق والوصول الى الغرض ، لكي أساهم بجهد يسير في الطريق التي يبتغي مرضاة الله عز وجل ، والله من وراء القصد .

١٠ رمضان ١٣٩٤

٢٦ أيلول ١٩٧٤

الفصل الأول

١ – خطوات الايمان

لا بد لنا من العودة الى حقائق – حدثتنا عنها السير والتراجم والتواريخ عن طبيعة الانتقال من الجاهلية الى الاسلام – قبل بناء المجتمع الاسلامي الاول – لنلم بالاسباب التي ساهمت بالردة وأدت اليها – في أية صورة من الصور – .

والفرق شاسع – في الحقيقة – بين طبيعة الدخول الى المجتمع الاسلامى بمكه – المهاجرون – والمدينة – الانصار – وبين طبيعة الدخول في الاسلام لبقية قريش – بعد الفتح – ثم لطبيعة الدخول في الاسلام للقبائل الأخرى ، والأعراب التي قدمت الى المدينة وفوداً متتابعة مسلمة معاهدة بعد فتح مكة ، ثم عادت الى مواطنها ولمّا تتبين بعدُ مقومات الإيمان والتصور الجديد للحياة التى انضوت تحت لوائه ، ثم لم تمارس هذه الحياة بوقائعها وصورها ومسالكها المختلفة ، ولم تواجه أية مصاعب في طريق هذا الايمان .

مجتمع مكة – والمسلمون المهاجرون –

هل كان الدخول في الاسلام امراً يسيراً في مجتمع الجاهلية بمكة ؟ وهل كانت الخطوة التي يجتاز فيها الفرد عتبة الاسلام شيئاً هيناً ؟ لعلنا ونحن نستعيد وقائع الدعوة – تأخذنا روعة الصورة التي وصل إليها المسلمون – إيماناً وتقوى وصدقاً ووعياً وشجاعة وتضحية – وننسى تلك العملية النفسية الداخلية التي اصطرعت فيها كافة القيم والتصورات والموروثات والعادات والمشاعر والأفكار الجاهلية مع التصور الاسلامي الجديد، الذي يطرح قيمه – أول مرة – في مكة .

وكثيراً ما ننظر الى النتيجة التي ينتهي اليها الفرد بعد اسلامه دون ان ندخل الى منحنيات النفس البشرية وكهوفها ودهاليزها، لنسمع نجواها وانينها، ونحس بألم العذاب والقلق ، ونشهد آثار الحرائق لدى مرور الفكرة الجديدة في عالم المشاعر والقيم الجاهلية المتشبثة في النفس قبل أن تصل الفكرة الجديدة منتصرة الى عالم الواقع الملموس . فكيف كانت عملية الدخول في الاسلام ؟

وما هو البعد النفسي والفكري الذي كان يفصل بين الجاهلية والاسلام ؟

لننظر الى الجاهلية ، كيف كانت ؟ وما هي الأشياء التي

كانت تعتمل داخل مجتمعها آنذاك ؟

فالجاهلية كانت تعتمد في حياتها على تصورها الخاص ، وهذا التصور تحده الحياة الانسانية ، بل حياة جيل واحد منها فقط ، مرتبط في عمر الفرد وحياته الدنيوية لأنهم ينكرون البعث [1] .

والصلة مبتوتة بين الخالق والمخلوق ، إذ لم يعتقدوا بأن الحاكمية لله سبحانه ، وأنه المنشىء والمصور والرب والاله وبيده الأمر من قبل ومن بعد .

لذلك فأمر الناس متروك الى مداركهم بكل ما فيها من ضعف وقصور وجهل ، وتقلبات الأهواء .

بل انحط تصورهم الى اخضاع الاله — حسب رأيهم — الى أهوائهم ليخدم مصالحهم ، فصنعوه بأيديهم ، حجراً ، أو تمراً وشكّلوه كيفما يريدون ، وأكلوه يوم جاعوا ، وأعادوه معبوداً يوم أن صار عندهم فضل من مال .

فهو كالخادم الجامد ، يقدسونه ليكون مطواعاً لهم ، يوصل

---

١ انظر قصة أمية بن ابي بن خلف عندما امسك بالعظم البالي وقال : من يحيي العظام وهي رميم ، في سيرة ابن هشام .

رغباتهم ويقربهم من الاله الأكبر لهذا الكون المحجوب عنهم . والعلاقات في المجتمع قائمة على المادية ، وكل مجتمع جاهلي لا يجد غير المادة ليقيم عليها علاقاته بعد أن يبعد الروح – وينكر الغيب ، ويدفن رأسه في الرمل – كالنعامة – كي لا يعترف بالبعث والنشور تخلصاً من مسؤولياته ، وانفلاتاً من قيود الكرامة الانسانية .

ولهذا كانت تصورات الجاهلية كسيرة الجناح ، مهدمة الأركان ، ولا يمكن أن تكون إلا شوهاء ، تحمل أسباب خرابها وعذابها وقلقها في احشائها وصلب تكوينها . والمنفعة بصورتها القديمة المعروفة هي التي حكمت العلاقات الاجتماعية . والتقاليد التي رسخت أسس المنفعة وحافظت عليها بقيت مصانة حتى وصلت الى درجة التقديس .

وليست القبيلة – بتقاليدها ، وتناصرها الأعمى – إلا صورة للتضامن من أجل الحفاظ على هذه المنفعة ضمن إطار صغير من المجتمع – القبيلة أو العشيرة – ما دام الانسان الفرد لا يستطيع – وحده – المحافظة عليها أو ضمانها . لأن القوة التي ستصون هذه المنفعة أو تكون سبيلاً اليها هي القوة العضلية في ذاك المجتمع .

لهذا كانت المظالم عادات مسلّم بها ، والسلب والنهب نوعاً

من الفروسية أو القوة ، هكذا كانت الغارات والحروب ...
ويستلبع ذلك كل المظاهر الأخرى للدفـــاع عن هذه التقاليد القبلية التي تضمن تماسك وحدة القبيلة ، كإطار لهذه المنفعة ، وكيان لا بديل عنه في المجتمع الجاهلي ، للحفاظ عليها .

والتناصر والثـــأر والتزام الأمور القبلية دون تفكير أو تبصر وسيلة لهذه الغاية .

ولا يعني هذا أن المجتمع القبلي مجتمع متضامن متكامل قائم على العدل والانصاف والمساواة ، وتضمن حقوق أفراده كلهم – على أقل تقدير –

بل كان في القبيلة فروق شاسعة ، بين الزعماء المتنفذين الذين يرثون الزعامة والسلطة لميزات جسدية أو فكرية أو مــالية أو عائلية ، تجعلهم قادرين على اخضاع بقية الناس لسلطانهم . وبين بقية أفراد القبيلة.

والفرد العادي في القبيلة يحتاج الى حمايتهـــا – من جهة – لأنه سيكون مسلوب الحقوق الانسانية ، مستعبداً ومعرضـــاً لكل أنواع المظالم من الآخرين إذا لم تكن له قوة تبسط عليـــه الحمـــاية ، وتضمن له حداً من الحقوق . ولعل العودة الى حياة الأرقاء تبين لنا الفرق بين أبناء القبائل، وبين الأرقاء والضائعين الذين لا يجدون سبباً يصلون فيه بنسب احدى القبائل .

بل إن حرص كثير منهم على الموالاة لاحدى القبائل نوع من التماس هذه الحماية ، وضمان شيء من حقوق الحياة في مجتمع يقوم على التعصب القبلي والكيانات العشائرية والمنفعة المادية فقط .

* * *

في هذا المجتمع كان هناك بحث عن شيء مفقود ، عن أمن يخلص الأفراد من الإرهاق والعبودية للعادات القبلية الخاضعة لأهواء حفنة من الرجال المستغلين . كان حلف الفضول نوعاً من البحث ، ومظهراً من مظـاهر الضيق الانساني بتصورات الجاهلية .

وكان هنـاك تمرد — أحياناً — على قوانين الجاهلية بصور سلبية أو ايجابية .

ففي بعضها كان الفرد ينضوي منزويـاً بعيداً ، أو مشرداً مطارداً ، أو عاكفاً مترهبـاً ، أو باحثاً رحالاً . هكذا كان الصعاليك يطاردون من المجتمع ، لأنهـم حين افترقوا عنه ، وضاقوا بمظالمه وأخطائه ، لم يستطيعوا ايجاد طريق أفضل ، فوقعوا في صور أخرى من الظلم والعنف والتعدي الذي ينبع من ردة فعل عميـاء لاحساسهم بالظلم ، وهكذا كان المترهبون ،

والبـاقون على دين ابراهيم عليه السلام ، والمجانبون المسالمون لجميع الناس .

* * *

عندما جاء الاسلام كان مثار تفكير حار في ضمير كل فرد في المجتمع الجاهلي ، ولا سيما الذين كانوا يحسون في أعماقهم بمرارة الجـاهلية – بطعومها المختلفة – والقلق الداخلي والتناقضات الكثيرة في عالم الفكر والسلوك معاً. أما الذين كانوا قد استقروا في تفكيرهم على أن تصورات الجاهلية قاصرة خاطئة وظالمة ، والتمسوا في بقية دين ابراهيم مـــلاذاً لأنهم لم يجدوا الصورة الأمينة التي توفر لهم الأمن الواقعي والداخلي .

أما هؤلاء فقد آمنوا بالرسالة الجديدة ، بعد أن سمعوا كلمات رسول الله – ﷺ – صاحب الرسالة فكانت حارة صادقة عميقة ، تشع بالنور ، وتخاطب الانسان – فكراً وشعوراً ووجدانـــاً وكياناً شاملاً – وتحمل له التكريم ، وتفتح أمـــامه الآفاق الواسعة ، وتصله بالكون والحيـــاة من حوله بعد أن ألجأته الجاهلية الى حيز ضيق مظلم ، ووضعته تحت ضغوط ينأى عن حملها وسدت أمامه منافذ الأمل ، بالحرية ، أو الظفر الذي يعوضه عن هذه الآلام .

ورقة بن نوفل ، وخديجة بنت خويلة ، وسلمان الفـــارسي

رضي الله عنهم .

فورقة بن نوفل كان شيخاً كبيراً مجرباً، يكتب من الانجيل، ويقرأ في الكتب القديمة ، ويتعرف الى رسالات السماء ولهذا عندما جاءته خديجة مع رسول الله ﷺ وسمع خبر الوحي قال: هذا هو الناموس الأكبر الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك .

فقال له محمد ﷺ : « أومخرجيّ هم ؟ » .

أجاب ورقة : نعم ! لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك ، نصراً مؤزراً [1].

فورقة عرف الجاهلية معرفة الخبير ، وقرأ عن جاهليات مختلفة في الكتب القديمة منذ آدم – عليه السلام – وعن وقوفها أمام دعوات الله مستنكرة ومعاندة .

لهذا عندما سمع من رسول الله – ﷺ – أمر الوحي عرف فيه الصدق ، وتبين سمات الرسالة والرسول الجديد ، فأدرك أنه سيلاقي من التعذيب والايذاء ما لاقاه غيره من الرسل ، وهذا شأن دعوات الحق في كل زمان ومكان .

---

١ – رواية البخاري ومسلم ، وانظر سيرة ابن هشام .

وخديجة – رضوان الله عليها – لم تكن تقرأ الكتب أو تبحث عن أمور السابقين ، لكنهـا كانت تشعر – بصادق فطرتها – أن هذا المجتمع يلفه القلق ، ويقوم على تناقضات مهلكة وتصورات خاطئة ، وأن الأمراض والجرائم تغلي في كيانه كله .

وعندما عرفت محمداً الرجل الانسان ، رأت فيه طرازاً من الانسانية يختلف عن بقية الناس .

أمانته أمانة فطرة قويمة لا أمانة محبة للشهرة .

وصدقه صدق الأطهـار المخلصين لا صدق الطامعين أو الخائفين وتفكيره تفكير الأحرار العقلاء ، لا تفكير المستعبدين والجاهليين . والتمست عقـد الصلة بينها وبينه ، وطلبت منه الزواج وكان ذلك بمشيئة الله وعلى هديه .

هذه المرأة العاقلة الشريفة لم تخلب لبهـا الزعامـات أو الأموال والمظاهر ، وسعت هي الى محمد – ﷺ – لأنه الرجل الكامل ، لأنه صورة للانسانية التي ينشدهـا البشر – رجـل وامرأة – ويقلق لفقدانها المجتمع الجاهلي كله سعياً للتخلص مما فيه من علقم .

ودلت خديجة – رضي الله عنها على صدق فطرتها ، وسعة أفقها ، وسلامة تفكيرها ، وروعة صفاتها التي تؤهلها للاقتران

بالرجل ، واستقبال أمر الدعوة الجديدة ، وتحمل الأعباء الجسام .

قالت لرسول الله – ﷺ – بعد ما سمعت وصفه لجبريل عليه السلام « كلا ، أبشر ! فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

مبررات الواقع من المزايا والصفات والسلوك وهذا الطهر تجعلها توقن بأنه مرسل حقاً – يوم كان الايمان شيئاً هائلاً وغريباً – ويبعد عنه شبهات التوهم أو المساس من الشيطان .

وقصة إسلام سلمان الفارسي – رضي الله عنه – عبر رحلة طويلة شاقة ، بحثاً عن تصور صحيح للحياة والتماساً للانسان الذي يفهم الحياة ، ويقول الحق ، ويتحرر من تصورات الجاهلين ، حتى وصل من فارس الى الشام ، الى المدينة فالتقى برسول الله – ﷺ – واستيقن خبر الرسالة ودخل في دين الله راضياً مطمئناً .

هذه الدلالات تشير الى أن المجتمع الجاهلي ، حين طرقت حصنه دعوة الله ، كان مجبراً على التفكير بأمر الدعوة لأنها تخاطب فطرته وكينونته ، إنه نور ينفذ الى العيون ولو أغمضت ، والى القلوب ولو حجبت ، وكذلك لا بد له من التفكير بأمرها ،

لأن أمره غير مستقر وطبيعته تخالف فطرة الانسان الصحيحة.

ومن جهة أخرى ، فإن طبيعة الدعوة الاسلامية كانت كفيلة بتحريك هذا المجتمع الآسن ، وكشف الغطاء عن أمراضه وعوراته وأوراقه الخبيثة ودعاويه الباطلة ، لأنها لم تدع لهذا المجتمع حجة ، بل توجهت الى عقله بالفكرة الواضحة ، والتفكير السليم ، والحجة القاطعة والدليل الناصع .

وتوجهت الى مشاعره بالنظرة السليمة ، والاقرار بما يلائم ذلك ، والاعتراف بأدق المشاعر وأكبرها وخاطبت كينونته كلها : عاطفة ووجداناً ، نوازع وغرائز ، فكراً وشعوراً ، حتى لم يعد أمام الانسان – في مكة أو غيرها – إلا أن يفكر فيها .

لقد كان المجتمع الجاهلي ساكناً رغم الضرام الذي يختفي في طياته ، فلما جاءت الدعوة فتحت مجالاً لأن يتنفس الباحثون فيه عن الحق أول الناس ، ثم جاء بعدهم الذين أمضتهم حياة الظلم أو أقلقتهم أوضاع الجاهلية .

وكان المجتمع الوليد ، بأعداده الصغيرة – ثلاثة فأربعة فعشرة فعشرين – هذا المجتمع هو الصورة المنشودة التي كانت تتيح للجاهلي أن ينظر اليها كفكرة تجسدت في واقع وأمة تلتزم فكرة ، ومجتمع ينتهج حياة جديدة ، ثم يقارن هذا

الواقع العملي للفكرة الجديدة مع واقع جاهليته ، فيرى البعد الهائل ، والمفارقات الضخمة ، يرى أن بينهما انفصاماً لا يزول ، وحاجزاً لا يختفي ، ولكنها الحياة الحقيقية للانسان المكرم المتحرر .

* * *

إذا عدنا لمراقبة واحد أو أكثر من المسلمين الأوائل في مكة وهو يجتاز الحد الملتهب بين الجاهلية والاسلام نرى حركة النفس وهي تموج بالصراع المحموم في داخلها حتى تنتهي المعركة بالطمأنينة والايمان واستنقاذ حقيقة الفطرة السليمة .

فهذا خالد بن سعيد بن العاص – رضي الله عنه – من أرومة ماجدة . أبوه سعيد بن العاص (أبو أحيحة) ذو المكانة والزعامة والميزات الكثيرة في قريش .

يرى خالد ما يدور في مكة من أحاديث حول دعوة محمد ، ويعرف خبر الرجل كإنسان ميزته الصدق والأمانة والاستقامة ورجاحة العقل وحسن الخلق .

ولكن خالداً يعيش في كنف والده الطاغية الذي تهدد المسلمين وتوعدهم ، وصب حقده وغضبه عليهم ، وكانت تحيط بخالد الأموال الكثيرة ، والرفاهية والنعمة ، والرعاية والتكريم .

شباب وسيم ، ومال وفير ، وجاه عظيم .

وسمع بأنباء الدعوة ، ثم يرى قريشاً وما تعبده من أصنام وأوثان ، وما تفعله في أنديتها وما تقول .

كان يعيش الجاهلية حياة الخبير العارف ، الذي خاض في غمراتها وبلى أحوالها :

قصور في التصور لا يتعدى حدود الحياة القبلية ، قائم على المنافع وعبادة الأجداد والأوثان والعادات ، وسلوك اجتماعي قائم على الظلم والتعدي والكذب والرياء ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بالزعماء .

وفي الطرف المقابل كان يسمع أنباء محمد ودعوته ، يرى كلاماً عجيباً لم يألف مثله الناس ، ويرى أفعالاً غريبة ليس وراءها تظاهر أو خيلاء .

وهناك صبر على الاضطهاد والتعذيب من المؤمنين بهذه الدعوة ، حتى يحار المرء ويتساءل كيف يصبرون ؟! أي نوع من الأضطهاد هذا الذي يتحملون ؟

لقد صبت قريش كل حقدها وغضبها على المسلمين الأوائل وهم قلة قليلة ، ومع ذلك لم تجد منهم ليناً أو ضعفاً ولم تظفر من أحدهم بعودة الى جحيمها المظلم .

لأي سبب يتحمل هؤلاء المساكين كل هذا العذاب ؟!

عبر هذا الطريق كانت فطرته تبحث عن الهدى ، وتلتمس الطريق الى الحق .

وحينما لم يجد في هذه الجاهلية مبررات مقنعة بأنها صاحبة الحق . جاءته الرؤيا ، وكانت المعبر الى الاسلام . جاء في ترجمته رضي الله عنه « خالد بن سعيد كان أول إخوته اسلاماً ، وكان بدء اسلامه أنه رأى في المنام أنه على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله أعلم به ، ويرى في النوم كأن آت أتاه يدفعه فيها ، ويرى رسول الله – ﷺ – آخذاً بحقويه لا يقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق !

فلقي أبا بكر بن أبي قحافة ، فذكر ذلك له ، فقال :

أريد بك خير ، هذا رسول الله فاتبعه فإنك ستتبعه وتدخل معه في الاسلام ، والاسلام يحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها .

فلقي رسول الله – ﷺ – بأجياد فقال :

يا رسول الله ! يا محمد الى ما تدعو ؟

قال : أدعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع

ولا يضر ولا يبصر ولا ينفع ، ولا يدري من عبده ممن لا يعبده.

قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسرّ رسول الله ﷺ .

وتغيب خالد، وعلم أبوه باسلامه ، فأرسل في طلبه فأتي به ، فأنبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرهـا على رأسه ، وقال : والله لأمنعنك القوت .

فقال خالد : إن منعتني ، فإن الله يرزقني مـــا أعيش به وانصرف الى رسول الله — ﷺ — فكان يكرمـــه ويكون معه [1].

ولن نستطرد في تحليل رؤياه ، ولكننا نشير الى ملاحظات ضرورية لايضاح طبيعة الانتقال من الجاهلية للاسلام ومـــا يرافقها من عملية نفسية وفكرية داخل الكيان الانساني .

١ — فالرؤيا هذه كانت صدى لما يدور في عقله ووجدانه من تفكير بأمر الدعوة الجديدة ، وموازنة ومقارنة ونقاش داخلي بين ما يدعو إليه المنهج الجديد ، وما تعودته الجاهلية ، وكان

---

١ — انظر البداية ج ٣ص ٣٢ — ٣٣ ، وانظر ترجمته في الاستيعاب والاصابة واسد الغابة والطبقات الكبرى .

يلاحظ – نتيجة لذلك – الفرق الشاسع بين الجاهلية والاسلام ، بين العبودية لأرباب من الأوثان ، والعادات والزعامات ، والتقاليد في شتى صور الاستعباد ، وبين التحرر من كل هذه العبوديات ليكون الانسان عبداً لله الخالق .

ولعل رؤية نفسه على شفير النار بسعتها التي لا توصف يبين حقيقة مشاعره وقلقه في الجاهلية التي يلفها الباطل والظلم والفساد والشرك في شتى جوانبها وبكل شؤونها .

الجاهلية تريد أن تدفعه للفساد والتمسك بالباطل والاصرار على الظلم ، ومحاربة الدعوة ، تمسكاً بعبادة الأوثان وإرادة الزعماء .

والاسلام يريد أن يفك إساره ، ويجعله طليعة الفكر والشعور والارادة والوجدان في ملكوت الله الواسع ، يسمع ويرى ويبصر ويعمل لمرضاة الله عز وجل .

٢ – والجاهلية تتمثل في هذه العقائد الموروثة ، والتقاليد التي تريد أن تكبل يديه وفكره ومشاعره ، وتمنع عنه الرؤية الصحيحة . لهذا رأى – كما في بعض الروايات – أن أباه يدفعه في النار بكل ما يمثله ذلك من أثر على العربي الذي يعتز بنسبه، ويفخر بآبائه وقد يموت في سبيل ذلك .

٣ – والاسلام يتمثل برسول الله – ﷺ – آخذاً بحقويه

لا يقع في النار ، والرسول يحمل للناس كافة التصور الجديد لينقذهم من طغيان الجاهلية ويصلهم برب الناس .

٤ — ونلتفت الى قوله عندما فزع من نومه : أحلف بالله ، إن هـــذه لرؤيا حق ، فنرى أن ذلك صدى لما كان يدور في نفسه وأعماقه من قلق وتفكير وبحث دائب للوصول الى الحق ، بل إن هـــذا الحوار المحتدم في داخله طيلة الفترة التي سبقت الرؤيا تلك ، هي التي مهدت للرؤيا ودخوله الى الاسلام فكانت الخاتمة الآمنة للصراع الداخلي العنيف .

ورؤيته للنار التي كاد يقع فيها ، ورسول الله يحجزه عنها نوع من المحاكاة الدقيقة لما يدور في ذهنه وقلبه من نظر وفكر — لهذا صاح : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق .

٥ — وعندما سار في الطريق ، وخطا أول خطوة ، فالتقى بأبي بكر — رضي الله عنه — وذكر له رؤياه ، كان أبو بكر واعيـــاً لحقيقة الاسلام ، عارفاً بالجاهلية أيضاً ، ومشفقاً على هؤلاء الضائعين الذين منعتهم الجاهلية من الايمـان لذلك بشره وبصره : « أريد بك خير » .

ودعاه الى متابعة محمد والدخول في الاسلام ، للظفر بالهدى والنجاة من النار .

٦ — ولمـــا لقي رسول الله — ﷺ — كان القول الفصل ،

بعد أن سأله عن الدعوة ليفكر ويوازن ، ويتعرف الى الحق من لسان أهله ، ولعله أول أمره يسمع من صاحب الدعوة شرحاً لمنهجه بعيداً عن تشويهات الجاهلية ودعايتها المغرضة وأباطيلها عن محمد وصحبه ودعوته .

وإن سؤال خالد لرسول الله دليل على تفكيره بالأمـــر ، حيث لم يكن اسلامه اندفاعاً ، وإنما جاء تتويجاً لقناعة وتفكير وبحث ، وبذلك انتهت آخر دعـاوي الجـاهلية ، واستسلمت وعجزت عن ايجـاد مبررات البقاء في الحياة لأنهـا شعوذة ، وباطل ، وأكاذيب ، ومتناقضات وانحراف للفطرة .

وأوضح له رسول الله أسس دعوته ، بوضوح وبساطة حيث بين له رأس الأمر ولبه : « أدعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . فالعبودية لله ، والحاكمية لله والطاعة والأمـر إليه ، لا يشاركه في ذلك انس ولا جن ولا ملك ولا أوثان ، ولا يقف بينه وبين عبيده وسطاء أو شفعاء أو حجاب .

ومحمد رسول الله – ﷺ يبلغ دعوته ، ويحمل الحق للبشر ، ويتحمل من أجلهم العذاب والآلام ، ويدعو الى خلع عبـادة الأوثان والأحجار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تدري من يعبدها ممن لا يعبدها .

عقيدة واضحة ، ومنهج يسير ، لأنـه موائم للفطـرة الانسانية وحقيقة الوجود كله .

ورأى خالد في ذلك النجـاة والطمأنينة والخير ، فأسلم. أسلم وهو يرى ما يقع على المسلمين من الأذى والتسفيه والتعذيب والمطاردة . وكانت الخطوة الأولى ، ودخل الاسلام بعد أن خلع جاهليته .

كانت دار الاسلام – كما هي في كل حـين – لا تستقبـل الرجل في عتبتها الأولى إلا بعد أن يخلع أسمال الجاهلية على هذه العتبات لأن نتن الجاهلية ، سيفسد هواء هذه الدار ، وسيكون أمر صاحبها مكشوفاً ومقززاً .

هدده أبوه ، ضربه بعصا غليظة حتى كسرت على جسده ، منع عنه القوت ، أمر اخوته أن يقاطعوه ، نزلت به المحن ، ولكنه خطا أول خطوة .

الخطوة الأولى كانت يقيناً يشمل كيانه كله: فكره وشعوره وجسده .

الخطوة الأولى كانت تطهراً كاملاً من أقذار الجاهلية: عقيدة وشعائر وسلوكاً .

الخطوة الأولي كانت ايمانـاً بأن المصير بيـد الله ، والمسعى

لمرضاته وحده .

الخطوة الأولى كانت انقلاباً في موازين الحيـاة ، وتصور الحياة وقيمة الحياة .

لهـذا تحمل العذاب راضياً ، وصبر على التسفيه والمقاطعة مطمئناً وثبت على الطريق واثقاً .

من هذا كله نخلص الى أن اجتياز المسلم للحد الملتهب الفاصل بين الجاهلية والاسلام كان يمر قبل أن يجتاز ذلك الحد ، بتلك الحركة النفسية التي تحتضن صراعاً محموماً بين الجاهلية — قيماً وتقاليد وإرثاً يملك العواطف والمصالح ، ويرتبط بالزعامـات والمصير أحياناً — وبين الاسلام : تصوراً جديداً ، وتحرراً من تلك القيود والتضييق والنتن الخبيث .

وكانت حقائق الفطرة هي التي تفوز أخيراً ، لأنها لا تجد دواعي الطمأنينة والاستقرار إلا في هذا التصور الرباني ، ولا ترى مكاناً أرحب من الاسلام يستجيب لدوافعها ويحقق توازنها، ويفتح أمامهـا آفاقاً تشمل سعة الكون كله ، وتتجـاوزه الى الآخرة .

نخلص من هذا — أيضاً — إلى اليقين بأن الانتقال من الجاهلية الى الاسلام في مجتمع مكة ، لم يكن خطوة سهلة . كانت تسبقه صراعات داخلية بين عقيدة الجاهلية وموروثاتها ، وعلائقهـا

النفسية ووشائجهـــا الدموية ، وبين عقيدة الاسلام ، ولا يسلم الرجل إلا بعد أن ينتهي من هذا الصراع الى اليقين والطمأنينة ، والانتصار للفطرة السليمة على التشويه والضعف، والتسليم المطلق للوحدانية المدبرة الفاعلة القادرة ، والايمان الراسخ بالارتباط الدائم مع الله سبحانه وتعالى .

ولم يكن أحد يشك في انتصاره ، وتحرره ، وغنـــاه ، ورفعته وسموه، وفوزه عند الله، حين يسلم ويغادر الجاهلية بما تملكه من مال وملك وجاه ، أو ما تكشر عنه أنيابها الدامية من تعذيب ونهش وبطش وافتراس [1] .

٢ – ثمرات الايمان المستقر :

أي مطمع أو غنيمة كان ينتظر عبد الله بن مسعود – ذلك الراعي الضئيل الذي لا ينتسب لعشيرة ولا تحميه قبيلة – عندما وقف أمام قريش يسمعها آيات الله ، ويتحداها بايمانه العظيم ، ولنسمع قصته تلك .

عن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال : « كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله – ﷺ – بمكة عبد الله بن مسعود

---

١ – انظر اسلام خالد بن الوليد ، او مصعب بن عمير او غيرهم في كتب السيرة والتراجم .

- رضي الله تعالى عنه - قال : اجتمع يوماً أصحاب رسول الله - ﷺ - فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعمونه ؟

قال عبد الله بن مسعود : أنا أسمعهم .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من العدم إذا أرادوه .

فقال : دعوني فإن الله تعالى سيمنعني !

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ، ثم قرأ رافعاً صوته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ... » ثم استقبلها يقرؤها .

قال : فتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم معبد ؟

ثم قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه .

فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك .

قال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأوعاودنهم بمثلها غداً .

قالوا : حسبك حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون [1] .

* * *

هكذا كانت نماذج المؤمنين في الله — في خطوات الايمان وفي رسوخه وآثاره — وهكذا كان شأن الدعوة « تدخل في قلوب الجماعات في ريث من غير تعجل ، ولا انسياق من غير تفكر وتدبر ، ولكنها إن كانت ، صارت كالجبال ...

لقد كانت نابعة من احكام المنطق ، واحكام العقل ، والامداد الالهي بروح القدس . وما كانت انفعالة — بل كانت نفوساً مطمئنة راضية مرضية ، آمنت بالحق ، وأخذت به ، دخلها الايمان ولم يخرج منها وهكذا يكون من شأن الدوام والاستقرار في النفوس التي يدخلها ، فإذا أشرق فيها فهو إشراق لا ينطفىء فلا يشبه نار الهش من الأحطاب الذي ينطفىء بأقل الرياح بل يشبه الماء العميق بعيد الغور الذي لا تهزه الرياح فلا تعبث به الأهواء » [2] .

---

١ - انظر سيرة ابن هشام ١ - ٣٣٦

٢ - انظر خاتم النبيين للشيخ ابو زهرة رحمه الله ج ص، ٤٦٩ واقرأ ايضاً في كتاب معالم في الطريق الفصول (جيل قرآني فريد ، طبيعة المنهج القرآني ، نشأة المجتمع المسلم .

وهذه الصورة كانت تشمل جميع المسلمين الأوائل – المهاجرين والأنصار ومجتمع المدينة فيما بعد –

فالمهاجرون مروا بالمحن التي لم تترك في نفوسهم ضعفاً ، أو في قلوبهم شكاً ، أو في أفكارهم وسوسة لشيطان ، وكانوا يجدون دنيا الله أرحب من ضيق الجاهلية ، ومرضاته أعظم نعمة من الوجود كله .

كانوا يشعرون بيد الله تقدر الأمور وترعاهم وتكلؤهم وتسير الكون من حولهم فيستسلمون لله راضين ، ويثبتون على الايمان مطمئنين ، ويمضون للجهاد مستبشرين ، فينالون مرضاة الله – عز وجل – ويصطفي منهم شهداء ، ويبقى الذين كتب الله لهم أن يخوضوا في مواطن أخرى من الجهاد .

والأنصار مروا في هذا الطريق الذي يصل بهم الى اليقين والطمأنينة ، وبايعوا رسول الله – ﷺ – بعد أن استقر في نفوسهم اليقين بأن الرسالة حق ، والطريق خير لقد رأوا وعرفوا تجربة إخوانهم من المهاجرين، بعد أن سمعوا من رسول الله – ﷺ – معالم دعوته ، وراحوا يفكرون ويستمر التفكير سنة فأخرى ، يوازنون ، ويستقرئون ويبحثون ويرون حولهم يهود الجاهلية في المدينة، ويسمعون منهم حتى ينتهي بهم التفكير الى الايمان .

ولهذا كان ايمانهم متأنياً ، راسخاً ، إذ لم يقدموا على البيعة الأولى أو الثـانية إلا بعد أن هزمت وسحقت آثار الجـاهلية وانطفأت نيران رجسها المهلك، فذهبوا الى رسول الله – ﷺ – راضين واثقين وهم يعلمون أن العرب – وعلى رأسهم قريش – تقف ضد شريعة الله وتعادي دينه ، فبايعوا ، وأعطوا العهد والموثق ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، بل تجاوزوا حدود البيعة حين هاجر رسول الله اليهم ووقع أول صدام مسلح بين المسلمين والمشركين في بدر .

هؤلاء هم السابقون : نماذج رائعة للايمـان ، وأمثلة بشرية واقعية من حملة العقيدة، حيث تحولوا بالايمان الى جبال راسيات، بل تندك الجبـال ولا يزولون ، وتندرس الصخور ولا يتزعزعون .

فلا نعجب – بعدها – أن يصنع هؤلاء ما صنعوا .

١–من وقوف بطولي فريد أمام طغيان الجاهلية وشراستها، يتحدّون ويصبرون ويثبتون أمـام ضرباتها الحاقدة ، وألوان التعذيب الوحشي، وأفانين الايذاء يوم لم يكن مكتوباً عليهم أن يجاهدوا الكفار بالسيوف .

٢ – ومن وعي نادر يشمل : الفهم العميق للعقيدة، والتمثل الدقيق لمنهجها وشريعتها في الاخلاق والسلوك والمعاملات وفي الحكم والحرب والسلم ، وفي الشؤون الخاصة والعـامة ، وفي

التربية الفردية والحركة الجماعية .

كان هؤلاء نماذج رائعة لأنهم لم « يرقعوا » تصوراتهم « برقع جاهليــة » كما يفعل مسلمو عصرنا ، ولم يخلطوا بين تصورات الجاهلية وآثارها ، وتصورات الاسلام وآثاره . كان إسلامهم نقياً خالصاً من كل شائبة ، فأعطوا هذه النتائج والثمرات .

ويكفي أن ندرك أثرهم في الدعوة، والجهاد، وعظمة مواقفهم في مواطن فردية وجماعية ، لكي ندرك طبيعة هذا الايمــان . ويكفي أن نعرف طبيعة المعركة الفكرية والنفسية ، التي صبر عليهـــا المسلمون في مكة وسط جو من الادعاءات والأقاويل والحرب النفسية ، والاتهامات والتشكيك الى جانب الهجوم العنيف بالتعذيب والتسفيه والايـــذاء والتجويع والمطاردة لنتعرف الى طبيعة هذا الايمان .

ويكفي أن ندرك المعارك العظيمة التي خاضها المسلمون منذ الردة الفاتنة العمياء ، ثم ضد فارس والروم بما تميزت به المعارك من مواقف نادرة « حيث لم يقع المسلمون – في معركة – بحرج إلا برز عـــدد من المهـــاجرين والأنصار – مهما قلّ عددهم – واقتحموا الصفوف راكضين الى الله ، مستبشرين بلقائه، فرحين بالشهادة ، عازمين عزمة الايمـــان حتى تزول الغمة ، وينقضي الحرج،ويندفع الجيش وراءهم إذ يرون نوراً باهراً يضيء طريقهم

مع كوكبة المؤمنين – من المهـــاجرين والأنصار – فيفوزون وينتصرون ، وحين ندرك هذا نعرف معنى هذا الايمان .

* * *

إن هذه الخطوات التي كان يسيرهـــا كل مسلم في مكة والمدينة حتى يدخل في دين الله ، عبر طريق المحن ، وعـــلى محك الابتلاء كانت تصنع منهم أمة مسلمة حقـــاً ، لهذا ظلوا ثابتين وانتصروا مجاهدين ، – ولم نجد واحداً منهم يعود عن اسلامه بعد وفـــاة رسول الله ، لأن ايمانهم استقر على يقين واطمئنان بعد أن هزمت كل دعاوي الجاهلية وتصوراتهـــا في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم .

الفصل الثاني

١ – اسلام المتأخرين

ننتقل بعد استعراضنا لطبيعة الدخول في الاسلام للمهاجرين والأنصار الى استعراض طبيعة المرحلة التي أعقبت يوم الفتح العظيم لمكة ، والى اسلام رجال تأخروا في إسلامهم الى ذلك اليوم ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل .

وهؤلاء الرجال يأتون في الصف الثاني من النماذج الاسلامية للمجتمع الأول .

فهؤلاء كانت تمنعهم جاهليتهم من دخول الاسلام : بعضهم كان يرى في علو مكانته ، أو شهرته ، أو غناه ومـــاله ، أو وجاهته وزعامته ، ما يحميه من الاسلام ، فيقف معانداً ويستمر متعصباً خشية أن يفقد شيئاً مما له في الجاهلية .

وبعضهم كان يحقد على محمد وصحبه ، ويرى فارقاً كبيراً في موازين الأرض يفصل بين هؤلاء واولئك .

مع محمد فقراء وموالي وعبيد يقفون الى جانب أشراف وأغنياء وقد يفضلونهم .

أما هم فقد ورثوا المجد والزعامة والغنى كابراً عن كابر ، وكانت لهم الكلمة المسموعة ، والمكانة المرموقة ، فكيف يتساوون مع العبيد والموالي والأتباع حين يسلمون ؟

وبعضهم كانت له مواقف مخزية ضد الدعوة ، فخاف أن يناله العقاب بعد الاسلام ، أو دفعته المكابرة على الاستمرار في جاهليته .

والمهم : إن هذه الموانع أو غيرها أخّرت كثيراً من الناس عن دخول الاسلام ، وعندما فتحت مكة يئس هؤلاء من قدرتهم على الصمود أمام الاسلام — فضلاً عن القضاء عليه — وعرفوا أنهم لن يفلحوا في مقاومته ، ولم يجدوا مبرراً لاستمرارهم على جاهليتهم ، فقد زالت عنهم الألقاب وانفض عنهم الاهل والصحب والأتباع .

أما ما يدور في نفوسهم ، فلقد استيقنوا أن الحق مع رسول الله — ﷺ — وأن الذي يدافعون عنه باطل وسخف وضلال .

تلكأوا وتريثوا ، ودافعوا عنهم هجمات النور والهدى ،

لكنهم لم يجدوا سبيلاً آخر يلوذون إليه ، ولم يبق بينهم وبين الايمان فاصل إلا عناد شيطاني ، وعزة آثمة .

وينس الشيطان منهم أخيراً ، فقد آمنت عقولهم أولاً حتى لم يبق في حناياها شك ، ثم استسلمت قلوبهم الى الاسلام يوم أن تخلوا عن عناد الكفر وعزة الجاهلية الواهية .

كان من هؤلاء بقية قريش الذين أسلموا بعد الحديبية وقبيل فتح مكة وبعدها [1] مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وصفوان بن أمية ، وابن الزبعري ، وعبـــاس بن مرداس ، وعكرمة بن أبي جهل وأبو سفيان ، وغيرهم كثير ولعل اسلام بعضهم كان ايثاراً للسلامة في البدء ، ويأساً من أمر الجاهلية ، بعد أن حاولوا التماس مخرج آخر ، حيث صعب عليهم الرضوخ لدين الله بعد هذا العناد وهذه المقاومة الدامية له ، والمواقف المخزية ضده ، كما فعل عمرو بن العاص بذهابه الى الحبشة ، وكما فكر خالد بن الوليد في فراره من مكة ، وكما أراد غيرهمـــا أيضاً .

---

١ ـ انظر ج ٣ من سيرة ابن هشام وج ٤ ص ١٤ من اسلام ابي سفيان وعكرمة وصفوان وص ٢٤ ـ ٣١ ـ وعن اسلام ابن الزبعري ٣٢ واسلام عباس بن مرداس ٤١ واسلام خالد بن الوليد في ج ٣ ـ وانظر ج ص ٤٠٠ وما بعدها من خاتم النبيين (ابو زهرة) رحمه الله.

ولكنهم جميعاً كانوا مقتنعين – فكرياً – بأنه الحق ، ولا سيا بعد عمرة القضاء ، حيث رأوا محمداً – ﷺ – يعظم البيت الحرام ، ويقيم شعائره ، وينحر الهدي عند المروة ويقيم المودة بدل القطيعة ، ويحاول أن يقيم وليمة يتناولون فيها الطعام على مائدة الرحمن ، ودخل الى مكة راضياً وخرج منها وهم راضون .

وعندها أخذت العقول تفكر ، والفطر تتفتح للخير ، لقد وقف خالد بن الوليد يدعوهم الى التفكير في أمر محمد ، فقال :

« لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ، ولا شاعر ، وان كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » .

وبلغ أبا سفيان ما قاله خالد ، فسأله عن صحة ما سمع ، فأكد خالد له ذلك ، فاندفع أبو سفيان غاضباً ، وكاد يقع بينهما شجار ، فباعد بينهما عكرمة بن أبي جهل ، وكان يميل الى خالد في هذا الأمر ، فقال : مهلاً يا أبا سفيان ، أتقتلون خالداً على رأي رآه ؟ وهذه قريش كلها عليه ، والله خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة [1] .

---

١ – انظر خاتم النبيين (محمد ابو زهرة) ج ٣ – ١٢٤ – ١٢٥ ، وانظر المجلد الرابع من سيرة ابن هشام بعد فتح مكة .

وانكشف الأمر ، فقـد كانت مكة مسلمة العقل ، لكن كبرياءها تمنعها من إعلان ذلك، وهي تنتظر يوماً مشرقاً لتصرخ بأعلى صوتهـا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمـداً رسول الله .

وإذا تأخر بعضهم في إسلامه ، فلقد منعته مواقفه السابقة ضد الاسلام ، والعزة الآثمة دون ذلك ، ولكنهـم عرفوا أن التماس كرامتهم لن يكون إلا في دخول هذا الدين واتباع الحق، فكانوا بذلك من الذين أراد الله لهـم الخير وأنعم عليهـم بالهدى .

٢ – انتشار الاسلام

سوف أعمد في هذه الفقرة إلى نقل صفحات قليلة مما كتبه الشيخ محمد أبو زهرة – رحمـه الله – في كتابه « خاتم النبيين » عن هذه المرحلة من انتشاء الاسلام[١] « كان الاسلام ينتشر في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، والنبي – صلى الله عليـه تعالى وسلم – يرسل الدعـاة ، والناس منهم من يستجيب ، مؤمناً صادقاً ، فيهاجر الى المدينة ليكون قوة مع قـوة المؤمنين ، ومنهم من يسلم ويذعن مستسلماً من غير أن يسكن الإيمان قلبه،

---

١ – انظر خاتم النبيين ج ص ١٢١ ما بعدها .

وإن ذلك كان في الأعراب الذين لم يخالطوا أهـل الإيمان ، ولم يجاوروهم ولم يلتقوا بالنبي – ﷺ – ليطلبوا منه ، ولم يقرأوا القرآن مستمتعين بتلاوته ، ولذلك قال الله تعالى فيهم « قالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا : ولما يدخل الإيمان في قلوبكم»[1] وكان من الأعراب من ينتظر أن يكون الغلب للمشركين أم لمحمد وأصحابه ، منهم كانوا مذبذبين بين هـؤلاء وهؤلاء ، ومنهم من يبلغ به العناد في الكفر أن يجيئوا إلى النبي – ﷺ – مظهرين أنهـم يطلبون الهداية فيرسل إليهم النبي – ﷺ – من يحفظهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام فيغدرون بهم ويقتلونهم كما قتلوا طائفة من القراء بلغوا سبعين .

ومنهم من كانوا يأخـذون المؤمنين ويبيعونهم للمشركين كما فعلوا مع خبيب وأصحابه الذين باعوهم لأهل مكة وقتلوهم قتلة فاجرة ، فكان الحق أن يقول الله تعالى : « الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله»[2] .

وكان هذا النوع من النفاق الأعرابي متغلغـلا في الصحراء وحول مكة وحول المدينة المنورة ذاتها . فقد قال تعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق

---

١ – الاية ١٤ سورة الحجرات .

٢ – الاية ٩٧ سورة التوبة .

لا تعلمهم ، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم »[1] .

ولقد قسم الله تعالى الأعراب قسمين متعادلين :

١ – أولهما منافق جلي النفاق ، يحسب الزكاة مغرماً .

٢ – ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات ولقد ذكر سبحانه وتعالى القسمين فقال – تعالت كلماته – « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم »[2] .

وهكذا كان في الأعراب المؤمن الطاهر والمنافق ، ومن هؤلاء المنافقين كانت الردة التي أعقبت وفاة النبي – ﷺ – .

وكان انتشار الإسلام بين الأعراب على هذا النحو الذي بينه الله تعالى في كتابه .

كان الأعراب بين منافق كافر غادر ، وبين مسلم يتربص

---

١ – الاية ١٠١ سورة التوبة .
٢ – الاية ٩٨ – ٩٩ التوبة .

الدوائر ، وبين مؤمن تقي طاهر .

ومهما يكن أمرهم ، فقد كان الإسلام ينتشر مع هذا الدخل – وإن دخل الإسلام قلباً – ولو على تردد ، فإنه بتوفيق الله تعالى ، من بعد ذلك يشرق إشراقاً ، ثم يكون من ذلك إيماناً .

وإن الحروب التي وقعت بين المشركين ومحمد – ﷺ – ومن معه من المؤمنين كانت قوارع تقرع النفوس العربية ، فيهتز صداها في النفوس ، إذ خلاصتها أنها قتال بين التوحيد – ديانة إبراهيم أبي العرب عليه السلام ، وباني البيت الحرام – وبين الشرك ، فيدعوهم إلى التفكير بين الوحدانية والشرك – وبين ملة إبراهيم محطم الاوثان وبين عبادة الأصنام ، فإن ذلك يدفع نفس العرب والأعراب إلى التفكير في الأمر تفكيراً من غير إرهاق ...»[1] .

ولعل في هذا الحديث توطئة للدخول إلى دراسة الجموع المرتدة ، وتقصي أسباب الارتداد ، ونتائجها ، للإحاطة بهذه الظاهرة ، والاستفادة منها ، لأنها بمجموعها أعطت صورة عن مستويات الإيمان والإسلام معاً ، وأظهرت البون الشاسع بين المسلم المتظاهر والمؤمن الصادق الذي أعطى البيعة لربه راضياً

---

١ – انظر خاتم النبيين ج٣ – ١٢١ – ١٢٢ .

مطمئناً وأدرك بفطرته وعقله ووجدانه وكيانه كله حقيقة الحياة ، وحقيقة الصلة بين العبد وربه ، وبين الإنسان والكون حوله ، وأدرك معنى الفلاح الحقيقي في ميزان الله — سبحانه وتعالى — بعد أن خبر قوانين الجاهلية وموازينها فوجدها ظالمة مجحفة لا تصلح الحياة .

ومن أجل إدراك حقيقة الظاهرة — والاستفادة من دراستها، قدمت في الفصول السابقة صورة عن إيمان المهاجرين والانصار — القاعدة الصلبة — للوصول إلى تبين الصورة في إطارها الصحيح .

٣ — محن للتقويم والتنقية

كان رسول الله — ﷺ — يبلغ عن ربه منهجاً متكاملاً ويبني مجتمعاً فريداً ، ويصنع حضارة ربانية فاضلة متميزة ، ويقيم دولة تتصل بأسباب السماء ، وترفع راية الحق والعدل .

كانت الدعوة آخر الدعوات من الله عز وجل للبشر ، وكان رسول الله — ﷺ — خاتم النبيين الى الناس كافة لهذا أراد الله سبحانه أن تكون الأسس ثابتة راسخة واضحة ، وأن يظل المجتمع قوياً نقياً ، وأن تكون مسيرة الدعوة نموذجاً واقعياً وعملياً موائماً للبشر في كل الأزمان .

لهذا فإن اسلام المهاجرين الأوائل كان اسلاماً راسخاً وشاملاً للكينونـــة البشرية ، وظلوا القـــاعدة الصلبة للدين والدولة والمجتمع .

وكذلك كان اسلام الانصار بعد أن رأوا حركة الدعوة ، في هذا المجتمع فبايعوا صادقين ، واسلموا بكينونتهم البشرية كافة ، وظلوا القاعدة الصلبة للدين والدولة والمجتمع .

ومع هذا النقاء في المجتمع الجديد – في مكة ثم المدينة – فإنه يبدو لنا من تطور هذا المجتمع أن الله سبحانه كان يريد له أن يظل على نقائه ورسوخه،ليمضي في سبيله يحمل دعوة الحق ، ويبلغها للعالم .

لهذا كنـــا نرى محن الطريق تتوالى ، فيتساقط الضعفاء والمنافقون ، ويتخلف المتشككون والمستريبون ، وحسبنا أن نعدد بعض هذه المواطن :

– هاجر النبي – ﷺ – الى المدينة ، وأمـــر أصحابه – قبل ذلك بالهجرة – فتخلف عدد من المسلمين في مكة ضعفاً واستكانة .

– لقد كشف الله أمر المنافقين في المدينة، مرات عديدة – أولها بعد معركة بدر ، واستهزاء المنافقين واليهود بالمسلمين ، ثم

اجتماعهم في المسجد ، حتى أمر رسول الله بإخراجهم .

– موقف عبد الله بن أبي من حصار بني قينقاع .

– رجوع المنافقين قبل معركة أحد ، وانكشاف أمرهم .

– فرحة المنافقين بنتائج أحد ، واستهزاؤهم وشماتتهم بالمسلمين .

– اختراع المنافقين لقصة الإفك ومحاولة ضرب المجتمع الاسلامي من الداخل ، وتفكيك اواصره ، وطعن الدعوة بطعن بيت رسول الله – ﷺ –

– ضعف عدد من المسلمين وامتحانهم بالتخلف عن معركة تبوك .

– تخلف عدد من المسلمين عن صلح الحديبية .

– أمر جماعة مسجد الضرار من المنافقين ، وتآمرهم فيه على الرسول والمسلمين ، ونزول الوحي بتهديمه .

– محاولة المنافقين ايقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار في عدد من المرات .

– إثارة القبائل ، وعقد الحلف الكافر بين اليهود وقريش وعدد من القبائل لحصار المدينة في غزوة الخندق .

في هذه المواطن – وغيرها – جميعاً ، كانت تظهر أمور

كثيرة تبـــدأ من صور الضعف البشري في مرحلة من مراحله وتنتهي بالاشراك والكفر – أعاذنا الله من ذلك كله – وكل هذا لكي يتعرف المسلمون الى مثل هذه الحالات من ضعف الانسان أمام المحن : من مغريات أو مخوفات ولكي يعرف المسلم كيف ينبغي أن يعالج مثل هذه المواقف ويحذر الوقوع فيهـــا ، أو يتخلص منها إذا ألمت به حالة من حالات القلق أو الضعف أو الهزيمة .

لقد قلنا إن هذه الحالات تقع بين صورة الضعف البشري أمـــام المخوفات أو المغريات وبين صورة النفاق الذي يستبطن الكفر والشرك والعداء والكيد للاسلام والمسلمين .

وبين هاتين الصورتين تقع حالات وصور مختلفة ومتعددة . وكلها أفادت المجتمع المسلم – رغم مظاهرها السلبية – إذ كانت في ظاهرها إضعافاً للمجتمع المسلم – لا سيا قبيل أحد – ولكن الحقيقة كانت وسيلة قوة وتنقية وتمحيص ، حتى لا تغدو في الصف ثغرات أو يبدو معوجاً متعرجاً ، وبسببها كان المجتمع يفرز منه العنـــاصر المنافقة والمهزومة التي تقوم بدور التشكيك وإشاعة الفوضى ، وتحطم معنويات الرجال في مواطن الصبر أو المحن .

وقد تقوم هذه الفئات بدور العيون التي تحمل الأخبـــار للعدو وتتجسس للغدر برسول الله والمسلمين ، وقد تتآمر ،

وتؤرث الحقد ، وتسعى لإشغال الفتن بين عناصر المجتمع .

وقد تستغل بعض المناسبات لتدعو الى التخاذل والضعف والهزيمة ، لا سيما في المواطن الصعبة التي تثور فيها نوازع الضعف البشرى .

وقد تسعى لافساد المجتمع ، واستهلاك طاقاته كي يكون عاجزاً عن دخول معركة أو الظفر أمام امتحان . كل هذه الأمور ، لو اجتمعت في مجتمع ما ، وتكاثرت وتعاظمت لوصل هذا الى الهلاك .

ومن رعاية الله سبحانه لهذا المجتمع أن جعل له مواطن يفرز فيها هذه العناصر ، ويكشف أمر المهزومين والمنافقين حتى يتنبه المجتمع ، ويكتسب المناعة ضد هذه الظواهر فتسلم عقيدته ، وتزداد إشراقاً حين تنتصر في هذه المواطن .

ويتخلص المجتمع من سوءاته وأمراضه وجراثيمه حين يتطهر من هذه الأدران القاتلة .

ويبقى صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يعمل لمرضاة الله العلي القدير .

لم تكن هذه السلسلة التي ارتبطت – في اكثر الأحيان – باليهود والمشركين معاً – ، شيئاً عادياً ، بل كان نوعاً من القدر

الحكيم الذي رعى المؤمنين ، وكان من نتائجه أن وضحت صورة الايمان خالصة من كل شائبة ، وقام بناء المجتمع قوياً متيناً على أسس متينة . واستطاع أن يواجه صعاب الطريق ويحمل أمانة الدعوة الى أمم الأرض على امتداد الزمان والمكان .

٤ – أفواج الوفود المسلمة

رأينا صورة من مجتمع المدينة الاسلامي للانتقال من الجاهلية الى الاسلام ، وما يرافق هذه النقلة من مقدمات ، وصراعات وما ينتج عنها من مهام جديدة يحملها المسلم على عاتقه .

وفي هذا الفصل سنستعرض بشيء من الايجاز الوفود التي جاءت الى المدينة لتدخل في دين الله أفواجاً كي ندرك طبيعة النقلة الجديدة التي سارت بها قبائل كثيرة من عداد المسلمين دون أن تدرك تبعات هذا الاسلام ، أو مسؤولية بيعتها كما أدركها الأنصار من قبل .

ولعل هذا العرض سيكشف لنا عن الأسباب الحقيقية لظاهرة الردة الخطيرة ، التي جابهت دولة الاسلام ومجتمعه الجديد وهددت الكيان الاسلامي قبل أن يفرغ المسلمون من وداع حبيبهم رسول الله – ﷺ – وقبل ان ترقأ عيونهم وتسكن عواطفهم لفراقه .

وسوف أعمد الى عرض صورة مقتضبة ، أحرص فيها على ابراز المواقف الدالة ، والأمور المهمة التي تفيدنا في هذه الدراسة [1] .

في العام التاسع للهجرة ، جاءت الوفود الى النبي - ﷺ - بعد غزوة تبوك ، وقد عمت الدعوة الاسلامية جزيرة العرب وغدا الناس هناك بين محبين وكافرين ومترددين يسيرون في طريق الاسلام ، ولما يدخل الايمان في قلوبهم ، وقد كانت العرب تتربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش . كانوا إمام الناس ، وهداتهم ، وأهل البيت والحرم وصريح ولد اسماعيل ابن ابراهيم . وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك . وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله - ﷺ - .

فلما افتتحت مكة ، ودانت قريش ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب المسلمين ، لهذا دخلوا في دين الله أفواجاً .

ونقف هنا لنوازن بين دخول هذه الأفواج الى الاسلام وبين دخول المهاجرين أو الانصار ، بما يوافق هذا الدخول من أسباب أو نوازع أو مطامع ، أو مخاوف .

---

١ - انظر سيرة ابن هشام والبداية والروض الانف وخاتم النبيين وطالع ما جرى في عام الوفود .

وفتح مكة لم يكن فتحاً لمدينه لها قدسيتها ، بل كان فتحاً لقلوب الناس نحو الاسلام ، فهم تبع لقريش ، ولم يكن الفتح اكراهاً لقريش على الاسلام ، بل إزالة نعمة الزعماء والكبراء ، وتبين الحق الصريح الواضح ، ولهذا جرى التمييز بين من دخل في دين الله وحمل عبء المصابرة على الأذى في مكة والجهاد بالكلمة والسيف ، وبين من أسلم بعد الفتح ، لذا يقول الله سبحانه وتعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى »[1] .

ويقول في ذلك ابن كثير : فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين زمن الفتح، ممن يعد وفوده هجرة، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله تعالى خيراً وحسنى ، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة .

ويرى أبو زهرة — رحمه الله — أن الفتح الذي جاء به القرآن كان سنة ست للهجرة ، بصلح الحديبية ، لأن الله سبحانه سماه فتحاً ، قال سبحانه « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة

---

١ — الآية ١٠ سورة الحديد .

عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً »[1] .

ه – نماذج من الوفود

(وفد مزينة)

جاء هذا الوفد عند الحديبية وقبل الفتح ، وهو من مضر ، وكان يضم أربعمائة رجل ، في رجب سنة خمس للهجرة وبايعوا رسول الله في المدينة على اسلام من خلفهم من قومهم .

(وفد بني تميم)

روى البيهقي : قدم على رسول الله – ﷺ – الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الاهتم – التميميون – فوقف الزبرقان بن بدر وقال :

أنا سيد بني تميم ، والمطاع فيهم ، والجساب ، وأمنعهم من الظلم ، وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك « وأشار الى عمرو ابن الأهتم » .

قال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد المعارضة ، مانع لجاره ،

---

١ – الاية ١٨ سورة الفتح ، واقرأ في الجزء الثالث ٢٨٩ وما بعدها في خاتم النبيين عن الوفود .

مطاع في أدنيه .

فقال الزبرقان : والله يا رسول ، لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد .

فقال عمرو : أنا أحسدك ؟ فوالله إنه للئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد ، مضيع في العشيرة ، والله يا رسول لقد صدقتُ فيما قلت أولاً ، وما كذبت فيما قلت آخراً ، ولكني إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً .

فقال رسول الله – ﷺ – « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » .

وفد ثقيف

لقد امتنع رسول الله – ﷺ – عن هدم حصون ثقيف ، وحرق كرومهم ، وأنهى الحرب لأنهـا كانت في آخر شوال ، وأقبل ذو القعدة الحرام ، ولأن منهم من مال الى الاسلام . وفشا الاسلام في الطائف ، ولكن نخوة الجـاهلية ، وغلاظة قلوبهم منعتهم من التسليم وإن كان الاسلام قد فشا فيهم .

فلمـا انصرف رسول الله – ﷺ – اتبع أثره عروة بن مسعود وأسلم ، وعاد الى قومه ، فرموه بالنبـل حتى قتلوه

لاسلامه (مع أنهم أرسلوه ليفاوض رسول الله في ذلك) واتجه عمرو بن أميــة مع كبرائهم الى عبد يا ليل — وهو من كبرائهم أيضاً — بعد أن رأوا أنفسهم منفردين ، ولا طاقة لهم بلقاء محمد إن عاد لحصارهم ، فقال له : « إنه قد ذهب أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هـــذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم » .

ثم ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يؤمن لكم سرب ، ولا يخرج منـكم أحـد إلا اقتطع . فأجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله — ﷺ — رجلاً كما أرسلوا عروة . فامتنع المنتخب لهـذا الوفد إلا أن يكون معه نفر ، خشية أن يصنعوا به مثل ما صنعوه بعروة بن مسعود .

فبعثوا عبد يا ليل ومعه خمسة منهم .

وقدمــوا المدينــة ، فرآهم المغيرة بن شعبة قادمين فذهب مسرعاً ليخبر رسول الله — ﷺ — بقدومهم ولقيه أبو بكر ، فنقل خبر الوفد الى النبي — ﷺ — وكان أبو بكر والمغيرة يعلمان أنهم جفـــاة ، فأراد المغيرة أن يعلمهم كيف يحيّون النبي — ﷺ — فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

ضرب عليهم رسول الله — ﷺ — قبة في المسجد ، والنبي

يجيء اليهم فيه ، وكانوا **يطمئنون** الى خالد بن سعيد بن العاص لمكانة أبيه وصلته بهم في الجاهلية — وكانوا إذا جاءهم الطعام من قبل النبي — ﷺ — لا يطعمون إلا إذا طعم منه خالد .

وأعلنوا بعد ذلك اسلامهم ، ولكن في بقية من جاهلية ، وطلبوا من رسول الله — ﷺ — أن يبقي لهم اللات ثلاث سنين فرفض ، فطلبوا سنتين ثم سنة ، فأبى ذلك ، فطلبوا شهراً فأبى ذلك ، ولم يقرهم على الوثنية ساعة من زمان .

سألوه أن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأجابهم . وأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان فهدموها . طلبوا أن يعفيهم من الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام : « لا خير في دين لا صلاة فيه » .

وقد كان النبي — ﷺ — قد أقامهم في خباء في المسجد ليروا الناس إذا صلوا ، فيستأنسوا بالصلاة ، وليسمعهم ، ولكن جفوة الجاهلية حالت بينهم وبين الأنس بالصلاة . ومكثوا وهم يختلفون الى رسول الله — ﷺ — وهو يدعوهم الى الاسلام ، حتى أسلموا .

قال كنان بن عبد يا ليل الذي كان على رأس الوفد ، هل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا ؟

قال رسول الله — ﷺ — إن أنتم أقررتم بالاسلام أقاضيكم ،

وإلا فلا قضية بيني وبينكم .

قال : أفرأيت الزنى ، فإنا قوم نغترب ولا بد لنا فيه .

قال النبي ﷺ : حرام ، فإن الله تعالى يقول: « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » .

قالوا : أفرأيت الربا ، فإنه أموالنا كلها ؟!

قال النبي – ﷺ – لكم رؤوس أموالكم ، قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين » .

قالوا : أفرأيت الخمر ، فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها .

قال النبي –ﷺ–: إن الله تعالى قد حرمها، وقرأ قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ثم أخذوا بما قرره النبي – ﷺ – ولكن بقية الوثنية فيهم .

ولما سألوا النبي – ﷺ – أن يبقي الربه (اللات) قالوا واهمين « لو علمت الربه أنك تريد هدمها لقتلت أهلها » .

فقال عمر بن الخطاب وكان حاضراً : ويحك يا بن يا ليل انما الربة حجر .

قالوا : إنا لم نأتك يا بن الخطاب .

وقال ابن يا ليل لرسول الله – ﷺ – تولّ أنت هدمها فنحن لا نهدمها .

وأرسل الرسول – ﷺ – أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فهدماها .

ورغم هذه المحاولات التي تدل على الجاهلية المتغلغلة بنفوسهم وأفكارهم وقلوبهم فإن الوفد لدى عودته الى ثقيف كتم بن عبد يا ليل عن قومه ، ما سلّموا به للنبي – ﷺ – من تحريم الزنى والربا والخمر ، وخوّفهم من الحرب ، ولكن ثقيفاً قالت : لا نقبل ذلك أبداً .

فقال لهم الوفد : أصلحوا السلاح وتهيأوا للقتال واستعدوا له ورمّوا حصونكم .

فكرت ثقيف أياماً، يدبرون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا والله ما لنا به طاقة .

وقد دان له العرب كلها ، فارجعوا اليه ، فأعطوه ما سأل وصالحوه عليه ، فلما رأى الوفد أنهم قد اختاروا الأمان على الخوف والحرب أظهروا لهم ما أخفي ، وأعلموهم بما جرى .

ولا يحتاج هذا الخبر الى تعليق أو تعقيب ، وهو يعطينا صورة عن اسلام الوفود الذي ينبع من الخوف ، أو بدافع

المحافظة على الزعامات والكيانات الجاهلية،أو بدافع المناورات السياسية (إذا جاز لنا هذا التعبير) .

وفد بني عامر

لقد جاء وفد بني عامر الى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا له : أنت سيدنا وذو الطول علينا .

فقال عليه السلام: « انه ، لا يسخرن بكم الشيطان ، السيد هو الله » وكان في الوفد عـــامر بن الطفيل الذي أراد الغدر برسول الله ﷺ ، ولكنه لم يستطع فخرج من عنـد الرسول فقتل بالطاعون هو ومن تآمر معه

وفد عبد القيس

وجاء في الصحيحين أن وفد عبد القيس قدموا على النبي ﷺ فبش في وجوههم ، وقال ممن القوم ؟

قالوا : من ربيعة .

فقال ﷺ : مرحبـــاً بالوفد غير خزايا ولا ندامى . وقد رحب بالوفد لمـــا كان من التنافس بين ربيعة ومضر وأرادوا الاسلام فقال قائلهم : « يا رسول الله إن بيننا وبينك هـــذا الحي من كفار مضر ، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام ، فمرنا بأمر نأخذ به ، ونأمر به من وراءنا ، وندخل الجنة .

فقال ﷺ : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالايمان بالله وحده ، أتدرون ما الايمان بالله : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان . وأن تعطوا الخمس من المغنم » .

وأنهاكم عن أربع : عن الربا والحنتم ، والنقير والمزفت (وهي أسماء أنواع من الخمور تختلف أسماؤها بحسب اختلاف آنيتها) .

وكان بين الوفد الجارود بن بشر بن المعلى ، فترك نصرانيته ودخل الاسلام وحسن اسلامه ، ووقف بعد ارتداد عدد من قومه ، يقول بشهادة الحق ، ودعاهم أن يتوبوا ويعودوا الى الاسلام ، وهو يقول : أيها الناس إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأكفر من لم يشهد هذه الشهادة .

وفد بني حنيفة

وهم قوم مسيلمة الكذاب ، وكان بينهم يوم قدموا الى المدينة وقد ستروه بثياب والنبي ﷺ في يده عسيب من سعف النخل ، وقد سأله مسيلمة بعض ما تحت سلطانه .

فقال له النبي — ﷺ — : « لو سألتني هذا العسيب الذي بيدي ما أعطيتك » .

وكان مسيلمة قد كتب الى رسول الله – ﷺ – قبل أن يحضر كتاباً قال فيه :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد فإني أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصفه ، وليس قريش قوماً يعدلون .

فكتب اليه رسول الله – ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد ، رسول الله الى مسيلمة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

ولما جاء الوفد الى رسول الله ، أسلم بعضهم ولكنهم ارتدوا بعد ذلك ، واستهواهم ضلال مسيلمة الكذاب عن الحق ، بسبب العصبية الجاهلية حتى كان يقول قائلهم : « كاذب ربيعة خير من صادق مضر » .

وصورة هذا الوفد بمسلميه ومشركيه يعطينا صورة عن عدد كبير من القبائل التي لم تدرك معنى دخولها في الاسلام ، وظنت في ذلك نوعاً من المعاهدات أو المشاركة في الأمر ، إنها ما زالت تحتكم الى الجاهلية ممثلة في الزعامات ، أو العصبيات أو القوانين ، والأعراف ، أو المنافع المادية . فكم هي بعيدة بتصورها هذا عن معنى دخولها في الاسلام كما رأينا صورته

الواقعية لدى المهاجرين والأنصار .

وفد طيىء

قدم الوفد الى رسول الله – ﷺ – وعلى رأسهم زيد الخيل الذي سماه النبي زيد الخير ، وروى أن النبي – ﷺ – قال فيه « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه » .

وعرض رسول الله ﷺ الاسلام على الوفد فأسلموا وحسن اسلامهم .

وفد كنده

كان على رأس الوفد الأشعث بن قيس ، وعدتهم ستون أو ثمانون رجلاً ، فدخلو على رسول الله – ﷺ – بسلاحهم وزينتهم ، وقد لبسوا جبباً حبرات مكففة بالحرير ، ولم يسلموا عند دخولهم فنكر عليهم رسول الله ذلك وقال لهم : « أو لم تسلموا ؟ » .

قالوا : بلى ، قال : « ما هذا الحرير في أعناقكم ؟ » .

فأجابوا عن الاستنكار بأن شقوا الحرير ونزعوه من ثيابهم وألقوه ، ثم انتسب القوم ، وأكرم النبي – ﷺ – الوفد ، وأعلن اسلامه وعاد مرضياً آمناً مسلماً .

وفد الأشعريين وأهل اليمن

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يقول وقد وفدوا عليه ! « جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وأضعف قلوباً ، الايمان والحكمة يمانية ، والسكينة في أهـــل الغنم ، والفخر والخيلاء في أهل الوبر » .

ويبدو أن أهـــل اليمن سارعوا للدخول في الاسلام بعد انتشاره لأنهم كانوا أهل كتاب ويعلمون أنه رسول الله حقاً .

وفد الأزد

وهم من اليمن أيضاً ، وكان على رأسهم صرد بن عبـد الله الأزدي ، أسلم وحسن اسلامه ، وأمره رسول الله أن يجاهد من كان يليه من أهل الشرك بمن أسلم معه ، فقاتل أبناء مدينة اسمها جرش وتغلب عليهم . ولكن أهل جرش كانوا قد ارسلوا وفداً الى رسول الله – ﷺ – فأسلموا وحسن اسلامهم فيما بعد .

وفد بني الحارث بن كعب

وهم قوم في نجران ، أرسل اليهم رسول الله سرية بقيـادة خالد بن الوليد ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم ، فإن لم يستجيبوا قاتلهم ، وأرسل اليهم خالد الركبان يدعوهم الى الاسلام ، فأسلموا ، وأخـذ يعلمهم أمور دينهـم

وكتب الى رسول الله بذلك .

ثم جاء وفد منهم – تلبية لطلب رسول الله –ﷺ – الى المدينـة ، وفيهم قيس بن الحصين ، ذو العصبة ويزيد بن عبد المدان وغيرهما .

فسألهم النبي – ﷺ – : بم كنتم تغلبون من قاتلـكم في الجاهلية ؟

قالوا : لم نكن نغلب أحداً .

قال رسول الله : بلى !

قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم .

ولعـل رسول الله – ﷺ – سألهم عن ذلك ليقر هـذه الأخلاق الحميدة التي يحث عليها الاسلام وأمّر عليهم قيس بن الحصين فرجعوا الى بلادهم .

وفد همدان

أقبل الوفد وأعلن اسلامه بعد رجوع النبي – ﷺ – من تبوك . وكانوا قد حضروا بزينتهم ، ومعهم مالك بن النمط ، فأمر عليهم النبي مـــالك بن النمط واستعمله على من أسلم من قومه ، وأمره بجهاد من يقرب منهم من المشركين والكفار ، وأرسل معهم خالد بن الوليد بسرية لمعاونتهم .

وجاء في البخاري عن البراء بن عازب قال : كنت فيمن أرسلهم النبي – ﷺ – مع خالد بن الوليد الى أهل اليمن ، وقد مكث يدعوهم الى الاسلام ستة أشهر فلم يجيبوه .

فبعث النبي من بعد ذلك بعلي بن أبي طالب ، فلما دنا من الجمع اليماني المسالم ، وإن لم يكن دخل كله في الاسلام وقد خرجوا فلم يقاتلهم ، ولم يدعهم الى الاسلام بالقول ، بل برسالة رسول الله ﷺ ، فصف من معه من المسلمين صفاً واحداً ثم تقدم فقرأ عليهم كتاب رسول الله –ﷺ– وبعد ذلك أسلمت همدان كلها .

وفد دوس

قدم الوفد والرسول – ﷺ – بخيبر ، وكان على رأسه الطفيل بن عمرو الدوسي ، الذي كان قد أسلم بمكة ، وقصة اسلامه مشهورة يمكن التماسها في السيرة ، حيث حاولت قريش منعه ، لكنه التمس الحق وسعى اليه ، ثم ذهب الى قومه ودعاهم للاسلام حتى أسلم منهم كثير وجاء بالوفد الى النبي – ﷺ – مسلماً .

قدوم رسول ملوك حمير

جاء وفد ملوك حمير من اليمن بعدما سمعوا انتصارات

الاسلام وانتشاره ، وكان من ملوكهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين ، ومعافر وهمدان وزرعة ذويزن ، ومالك بن مرة الرهاوي .

وقد كتب رسول الله ــ ﷺ ــ كتابــاً للوفد يبين فيه أمور الاسلام والزكاة وغيرها .

وكتب كتاباً الى اليمن ــ كتبه الى عمرو بن حزم عندمـا بعثه الى اليمن وهو خاص بالواجبـات التي تجب على الآحاد ، فهو يفقههم في الدين ، ويعلمهم السنن ، ويأخذ صدقاتهم وهـذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله ورسوله ، يا أيها الذين آمنوا ، أوفوا بالعقود ، عهد من رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن ، أمره بتقوى الله تعالى في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمـره أن يأخذ بالحق ، كما أمره الله تعالى ، وأن يبشر الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم في الدين ، وأن ينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر ، وأن يخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ، ويلين لهم في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال : ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس بالنار وعملها ، ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين . ويعلم

الناس معالم الحج وسننه وفرائضه وما أمر الله به، والحج الأكبر الجامع ، والحج الأصغر العمرة ، وأن ينهى الناس أن يصلوا في ثوب واحد صغير إلا أن يكون واسعاً ، وينهى الناس إن كان بينهم هيج أن يدعو القبائل والعشائر ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، ويأمر النـــاس باسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المرافق ، وأرجلهـــم الى الكعبين وأن يمسحوا رؤوسهم كما أمر الله عز وجل ، وأمروا بالصلاة لوقتها ، واتمام الركوع والسجود ، وأن يغلس بالصبح » .

ويذكر بعد ذلك أحكام الخمس في الغنائم وأحكام الزكوات ونصابها ، وما يؤخذ من مقاديرها .

وفد نجران

يبدو أن هنـــاك أكثر من وفد قدم من نجران وكانوا من النصارى العرب ، وقد جـــاءوا يلبسون الذهب ، ويتزينون باللبـــاس ، فرفض رسول الله ﷺ ، أن يرد عليهم حتى خلعوا الذهب والزينـــة ، وأظهروا التواضع ، فرد عليهم رسول الله - ﷺ - وأجاب على أسئلتهم الكثيرة ثم كتب لهم كتابـــاً يدفعون على أساسه الجزية ، ويبقون على مـــا هم عليه ، وأسلم بعضهم .

وفد بني سعد بن بكر

لمـــا علمت بنو بكر بخبر الرسول - ﷺ - وانتصارات

المسلمين ، بعثت ضمام بن ثعلبة وافداً على رسول الله – ﷺ – فأناخ بعيره على باب المسجد . وعقله ثم دخل وهو لا يعرف شخص رسول الله – ﷺ – فقال في جفوة من لا يعرف : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .

قال ضمام : إني سائلك ومغلظ عليك المسألة فلا تجدن في نفسك .

فقال النبي ﷺ : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .

فقال ضمام : أنشد بالله الهك وإله أهلك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك الينا رسولاً؟ قال : اللهم نعم .

قال ضمام : فأنشد بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدونها ، فقال رسول الله : اللهم نعم . وجعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة :

الصلاة ، والزكاة ، والصيام والحج ، وفي كلها ينشده عند كل فريضة الصيغة التي ذكرها .

حتى إذا فرغ منها قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً

عبده ورسوله، وسأودي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص » ثم انصرف عائداً .

ثم عاد الى قومه مؤمنـــاً داعياً شاهداً بالحق ، وأعلن لهم كفره بالاصنام ، ودعاهم للايمان ، وشرح لهم ما سمع من رسول الله — ﷺ — فاستجاب له قومه، حتى لم يمس رجل وامرأة إلا مسلماً فما سمعنا بوافد أفضل من ضمام بن ثعلبة[1] .

وفد تجيب

هذا الوفد يختلف عن غيره ، فقد شرح الله صدره للاسلام. كان يتألف من ثلاثة عشر رجلاً ، جـــاءوا الى رسول الله — ﷺ — مسلمين ، منفذين لأوامر الاسلام مجتنبين نواهيه ، وجاءوا بالصدقات التي فضلت عن فقرائهم لذا قال فيهم رسول الله — ﷺ — « إن الهدى بيد الله فمن أراد الله به خيراً شرح الله صدره للاسلام » وقال أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — « يا رسول الله ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي » .

سألوا رسول الله عن القرآن والسنن والأحكام التفصيلية في كثير من الأمور فكتب لهم بهـــا ، ولم يطلبوا الإقامة ، فقيل

---

١ — القصة وردت بهـذا السياق في الصحيحين ، وانظـر خاتم النبيين ج ٣ ص ٣٣٣ .

لهم : ومـــا يعجلكم ؟ قالوا : نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله وكلامنا إياه ، وما رد به علينا .

وأحسن رسول الله ضيافتهم ، وأعطاهم جوائز من مـــاله ووزعها عليهم ،وسألهم بعدها إن بقي منهم أحد لم ينل جائزته ، فقالوا : غلام خلفناه على ركابنا فبعث إليه ، فجاء الغلام فقال: يا رسول الله إني امرؤ من الرهط الذين أتوك آنفـــاً فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي يا رسول الله ، قال عليه السلام : وما حاجتك ؟ قال الغلام : حاجتي ليست كحاجة أصحابي ، وإن كانوا قد قدموا راغبين في الاسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وإني والله مـــا أعجلني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني وأن يجعل غناي في قلبي .

فأقبل رسول الله – ﷺ – على الغلام وقال : « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه » ثم أمر له بمثل مـــا أمر به لرجل من أصحابه ، وعاد الوفد الى قومه .

ثم وافوا رسول الله بمنى سنة عشر – في حجـة الوداع – فسألهم عن الغلام فقالوا : يا رسول الله ما رأينا مثله قط وما حدثتنـــا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى : لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ورجع من رجع من أهل اليمن ، فقام في قومه ، فذكرهم الله والاسلام ، فلم يرجع منهم أحد .

وفد بني سعد من قضاعة

روى عن كبير وفد بني سعد من قضاعة ما يلي : قدمت على رسول الله – ﷺ – وافداً في نفر من قومي ، وقد أوطأ رسول الله – ﷺ – البلاد ، وأداخ العرب ، والناس صنفان : إما داخل في الاسلام راغب فيه ، وإما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه ، وعندما دخل الوفد المسجد ، وجدوا رسول الله يصلي على جنازة ، فقـــاموا في ناحية المسجد ولم يشتركوا في صلاة الجنازة ، ثم التقوا برسول الله فسألهم : أمسلمون أنتم ؟ قالوا : نعم قال : فهلا صليتم على أخيكم ، فقالوا : يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك .

فقال لهم : أينا أسلمتم فأنتم مسلمون .

وبايعوا رسول الله على الاسلام ، وعلى أن يقوموا بحقـــه ، فيطيعوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه ، ثم انصرفوا الى رحـــالهم وبايع رسول الله أيضاً – غلام كان يقوم على رحالهم وأعطاهم جوائز من ماله .

وفد فزاره

جاء وفد فزاره بعد رجوعه من تبوك ، وكان يتألف من بضعة عشر رجلاً منهم الحسن بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن

وهو أصغرهم ، وأقروا بالاسلام ، وكانوا في شدة ، فكانوا على ركاب عجاف، سألهم رسول الله – ﷺ – عن بلادهم، فشكوا حالهم ، ودلت شكواهم على جهلهم بربهم ، فبين لهم النبي – ﷺ – حقيقة العقيدة بالله العظيم لا شريك له ، ثم دعا لهم بالغيث فأغاثهم الله وأزال شدتهم .

وفد بهراء

بايع هذا الوفد رسول الله – ﷺ – وتعلموا الفرائض واستحفظوا بعض القرآن ، وأقاموا أياماً ثم عادوا بعد أن نالوا جوائز من رسول الله – ﷺ – مما أفاء الله عليه .

وفد عذرة

جاء الوفد في السنة التاسعة ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وكانوا ذوي صلة بقصي جد النبي – ﷺ – . بايعوا النبي ، فبشرهم ونهاهم عن بعض أوهام الجاهلية وبشرهم بفتح الشام وفرار هرقل ، ونهاهم عن سؤال الكهنة وعن الذبائح التي يتقربون بها الى الانصاب ، وأخبرهم أن ليس إلا الأضحية قرباً لله ، وما عداها طعام يطعمونه .

وفد بلى

كان قدوم الوفد سنة تسع في ربيع الأول ، ونزلوا عند

رويفع بن ثابت البلوى ، وقال لرسول الله - ﷺ - : هؤلاء قومي فقال رسول الله ! مرحباً بك وبقومك .

أسلموا ، وبايعوا ، وسألوا رسول الله عن أمـور ، ولا سيما الضيافة ومقدارها وآدابها وعن ما يضل من الشاء أو البعير في البـادية .

وفد ذي مرة

كان على رأس الوفد الحارث بن عوف ، وذكروا لرسول الله - ﷺ - أنهم ينتسبون الى نسبه فقالوا : « يا رسول الله ، إنا قومك وعشيرتك ، نحن بنو لؤي بن غالب » فتبسم رسول الله - ﷺ - وسألهم عن أهليهم وأحوالهم ، فشكوا له الجفاف ، فدعا لهم .

وقبل أن يغادروا أعطى كل واحد منهم عشر أواق من فضة كجائزة لهم ، ورجعوا الى بلادهم ، فوجدوها مطيرة .

وفد خولان

قدموا على رسول الله وعددهم عشرة في شهر شعبان من السنة العاشرة آمنو وبايعوا ،فسألهم رسول الله عن صنم يقدسونه يدعى (عم أنس) فذكروا له كيف افتتنوا به في سنة جفاف ظانين أنه رب لهم يضر وينفع ، ولكنهم أهتدوا بعد ذلك .

سألوا رسول الله عن بعض الفرائض وأحكام الدين ، فعلمهم وأوصاهم بالوفاء بالعهد وأداء الامانة وحسن الجواروعدم الظلم، فرجعوا الى قومهم وهدموا صنمهم المذكور .

وفد محارب

كانت هذه القبائل من أشد القبائل فظاظة في ردها على رسول الله يوم دعا القبائل في عكاظ للاسلام قبل الهجرة ، وها هي ترسل وفدها في السنة العاشرة عام حجة الوداع ، فأعلن الوفد إسلامه ، وبايع رسول الله - ﷺ - ونزلوا بضيافته، وكان بينهم الرجل الذي كلم رسول الله بأقبح الكلام في عكاظ يوم دعاهم للاسلام ، فحمد الله على اسلامه ، وطلب من رسول الله المعذرة والاستغفار وعاد الوفد بعد ذلك الى قومه .

وفد صداء

عزم رسول الله إرسال جيش الى صداء ، فجاء وفدهم بعد ذلك وعلى رأسه، زياد بن الحارث ، فقال لرسول الله -ﷺ- : يا رسول الله جئتك وافداً على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا آتي لك بقومي ، وكان ذلك سنة ثمان من الهجرة فرد رسول الله - ﷺ - الجيش ، وذهب الرجل ثم عاد بوفد من خمسه عشر رجلاً ، فبايعوا رسول الله وأسلموا ثم جاء وفد آخر في

حجة الوداع وكانوا مسلمين فبايعوا رسول الله .

وفد سلامان

جاء الوفد مبايعاً مسلماً ، وسألوا رسول الله - ﷺ - عن الاسلام وحقائقه ، وأفضل الأعمال ، فقال - ﷺ - « الصلاة في وقتها » ودعا لهم بالغيث ، فأغاث الله بلادهم ، وبعد ثلاثة أيام من إقامتهم عادوا الى ديارهم وقد نالوا جوائز رسول الله .

وفد غامد

قدم الوفد في السنة العاشرة للهجره ، وقابلوا - رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهم شرائع الاسلام وكتب لهم كتاباً فيه موجز لها ، وكان عدد الوفد عشرة ، وحدث أن ترك الوفد أحدثهم سناً لحراسة ركابهم وامتعتهم ، فنام الحارس وسرقت بعض ثيابهم ، فلما قدموا الى النبي - ﷺ - قال لهم :

« من خلفتم في رحالكم ؟ » قالوا : أحدثنا سناً .

قال : « قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم »

فقال رجل منهم : يا رسول الله ما لأحد من القوم عيبة غيري ، فقال رسول الله - ﷺ - : « فقد أخذت وردت الى موضعها » ولما عادوا الى متاعهم وجدوا صاحبهم فسألوه عما

أخبرهم به رسول الله ، فقص عليهم قصة الرجـل الذي سرق العيبة فاستيقظ الحارث وتبعه حتى أخذها منه ، فقالوا: نشهد أنه رسول الله .

وعـادوا الى النبي – ﷺ – وأخبره أن الأمر كما أخبرهم به ، وجاء الغلام فأسلم ، وعهد النبي الى أبي بن كعب فعلمهم بعض مـا تيسر من القرآن بعد أن كتب لهم بجملـة الاسلام وحقائقه ، فأجازهم كما كان يجيز غيرهم .

وفد الأزد

قدم الوفد فأعجب رسول الله – ﷺ – سمتهم وزيهم فقال: ما أنتم ؟ قالوا : مؤمنون ، فتبسم رسول الله – ﷺ – وقال: إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟

قالوا : خمس عشرة خصلة : خمس منها جاء به رسلك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بهـا في الجاهلية .

قال عليه الصلاة والسلام : فما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها ؟

قالوا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت .

قال عليه السلام : وما الخمس التي أمرتكم إن تعملوا بها ؟

قالوا : أمرتنا ان نقول لا إله إلا الله ، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

قال عليه السلام : ما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟

فقالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقال رسول الله – ﷺ – : « حكماء ، علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، وإني لأزيدكم فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون : لا تجمعوا مـا لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليـــه تقدمون وفيه تخلدون » .

وانصرفوا بعد هذه الوصايا وعملوا بهـــا وتعهدوا بالأخذ بأحكام الاسلام .

قدوم وائل بن حجر

قـدم الى النبي – ﷺ – ضمن وفود اليمن والجنوب وكان أحد أقيال اليمن (ملوكها) وقد أدناه النبي وأكرمه ورأى فيه خير أو دعا له قائلاً :

« اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده » ثم جعله والياً على الأقيال من حضرموت .

وفد النخع

وهو آخر الوفود ، كان مؤلفاً من مئتي رجل ، أقروا بالاسلام وكانوا قد بايعوا معاذ بن حبل عندما ذهب الى اليمن داعياً للاسلام وجاءوا النبي نائبين عن أقوامهم ، معلنين الطاعة والاسلام .

* * *

هذه صورة عن الوفود التي قدمت المدينة مسلمة ، تدخل في دين الله أفواجاً ، ثم تعود الى أقوامها لتعرض عليهم أمر الاسلام ، ولتشرح لهم ما رأوه وسمعوه من رسول الله ﷺ ، فيستجيب منهم من يستجيب ، وقد يتظاهر بعضهم بالاسلام ، وهو على كفره اتباعاً لأمر العشيرة ، وتضامناً مع عامتها ، وقد يرفض بعضهم أن يسلم ، فيكتم الوفد إسلامه حتى يشاء الله أن يظهره (١) .

---

١ – يمكن الرجوع الى البداية ٥ – من صفحه ٤٠ – ١٠٦ وكذلك في المجلد الرابع من سيرة ابن هشام وفي الجزء الاول من طبقات ابن سعد ص ٣٨ وما بعدها وفي عيون الاثر من ٢٣٢ الى ٢٥٩ من الجزء الثاني وكذلك في الروض الانف المجلد السابع وفي نور اليقين الجزء الثالث .

وهناك وفود أخرى لم نذكرهـــا في هذا العرض ويمكن الرجوع اليها في كتب السيرة أو التاريخ .

* * *

٦ ـ ملاحظات في أمر الوفود

يمكننا أن نستخلص بعض الملاحظات من هـــذا العرض السريع لعدد من الوفود التي قدمت الى رسول الله ممثلة لأقوامها، معلنة اسلامهـا ، لاستكمـال الدراسة لظاهرة الردة في المجتمع الاسلامي الأول :

١ ـ لقد كانت أكثر الوفود من جنوب الجزيرة العربية ، من اليمن وما حولها ، مع بعض الوفود التي أتت من مشرق الجزيرة أو الطائف أو تخوم الشام ، وكثير من هـذه الوفود كانت تعلم عن ديانات الله أكثر مما كانت تعرفه قريش ، فكثير من الأقوام كان يدين بدين النصرانيـة ويعرف أنه سيأتي نبي مرسل في جزيرة العرب ، وهذا يعني أنهم لم يكونوا يعبدون الأصنام ، بل كان كثير منهم يدين بدين المسيح عليه السلام .

وبقية الأقوام كانت من أعراب الجزيرة الذين عرفوا بغلظة الطبع وحدة المزاج ، وخشونة الصحراء ، وجفوة البادية .

٢ ـ كانت الوفود مؤلفة من بضعة عشر رجلاً ـ في أكثر

الوفود – يأتون الى رسول الله – ﷺ – ويمكثون أياماً – قد لا تزيد على الثلاثة – فيسمعون من رسول الله – ﷺ – ثم يسلمون لله ، ويتبعون رسوله ، فيوصيهم ، ويشرح لهم أحكام دينهم ، وقد يكتب لهم كتاباً يبين لهم عدداً من المسائل والقضايا التي تهمهم في سلوكهم ومعاملاتهم وعباداتهم وعقيدتهم ، ثم يعودوا الى أقوامهم ليبلغوهم ما حدث لهم ، ولينشروا دين الله بينهم .

فإذا كان رجال الوفد صادقين جميعاً ، فسيحملون الاسلام لتبليغه وشرحه لمن بعدهم ، وإذا كان اسلام بعضهم ضعيفاً أو تظاهراً كاذباً ، لم يفعل ذلك . بل يغدو خطراً على غيره ممن أسلم ، وسط جماعة لا تدرك من أمر هذا الدين إلا القليل القليل ، ولم تمارسه إلا لمدة يسيرة وقد تنقض ما عاهدت عليه وتعود الى الشرك الأثيم .

٣ – وكانت الوفود مؤلفة من زعماء القوم ، ووجهائهم وهذا يعني أنها كانت مبنية على أساس الزعامات الجاهلية والتقاليد القبلية ، وقد تكون هذه الزعامات صالحة لتمثيل هذه الأقوام ، وقد تكون غير صالحة ، وهذا ما جعل بعضهم يسير بقومه نحو الردة ، ويضلهم بعد الهدى ويوردهم موارد الهلاك .

٤ – إن عودة الوفود الى أقوامهم بعد اسلامهم لا يعني – في الحقيقة – دخول هؤلاء الأقوام الى الاسلام ، فإذا صدّقوا بما

آمن به زعماؤهم وقبلوا مـــا جاء به الوفد أعلنوا إسلامهم ، وإلا رفضوا ذلك وظلوا على جاهليتهم ، فضلاً عن أن قبولهم لما تجيء به الوفود لا يعني دخولهم لهذا الدين عن ايمان ويقين ، وإدراك وفهم وتمثل وتطبيق لكل مـــا يفرضه عليهم في كل شؤونهم .

والله سبحانه وتعالى يحاسب كل إنسان بما اقترفت يداه ولا يقبل منه عذراً يبرر فيه التقصير ، لأنه - كإنسان - مهيـــأ بفكره وفطرته لفهم هذه الحيـاة ، وقادر على تمييز الخير من الشر ، ومعرفة الحق من البـــاطل ، يستوي في ذلك الزعيم والعادي ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة . وإذا اختلف الناس في قدرتهم على الفهم والتمييز والاستيعاب فإنهم يشتركون في قدر من الادراك والفهم يسمح لهم باختيار العقيدة، ومعرفة الخير من الشر .

والذي يبدو من أمـــر الوفود ، أن اسلام هؤلاء الأقوام والكثرة من الناس ، كان متابعة للزعماء ، تقليداً للجاهلية ، التي أعطت هؤلاء الزعماء ميزة التقرير وتوجيه الناس حسب مـــا يرون .

وربما دار في خلد كثير منهم أن هـــذا الأمر كغيره من المعاهدات والاتفاقات التي تبرمها القبيلة ، فنظروا الى معاهدة رسول الله أنه إذعان لحاكم ، أو وفاء بعهد يبرمه زعيم القوم ،

ولم يستطيعوا معرفة حقيقته بأنه دين يقلب أوضاعهم ويخلع عنهم رداء الجاهلية ، ليدخلوا الى عالم جديد .

٥ – ولقد رأينا كيف كانت بعض الوفود تتشبث بأمور جاهلية وتظن أنها جاءت تبرم معاهدة بينها وبين رسول الله – ﷺ – تمنع عنها الخطر ، ويعطيها بعض المكاسب ، بعد أن انهارت أكبر قوة قبلية جاهلية في مكة (قريشَ) ولهـــذا كانت بعض الوفود تظهر بمظاهر القوة المادية أو المعنوية. وتفاخر بمفاخر الجاهلية وقد تتصرف تصرفات المعـــاند الذي يفخر بالآباء والأجداد . فبعض هــذه الوفود أصر على التسليم بتحية أهل الجاهلية ، وبعضهم كان يرتدي الحرير والذهب ، وبعضهم جاء يستعرض أمجاداً عفى عليها الزمن ، وبعضهم دخل المسجد وهو شاك السلاح ، وبعضهم سأل رسول الله أن يقر لهم بأوضاع جاهلية ، أو يعطيهم مكاسب مادية ...

وهذا دليل على أنهم لم يدركوا طبيعة هذا الدين ، ولم يكن دخولهم الاسلام دليلاً على القنـــاعة والايمان بأنه الحق والخير والمنهج ، وإنما دفعهم الى ذلك دوافع شتى ، بعضها الخوف من امتداد الخطر اليهم حيث لا يقوون على الوقوف في وجهــه ، وبعضهم أسلم طمعـــاً في مغنم ، وبعضهم كان يأتي حفاظاً على زعامته .

وهكذا كان من بين هــذه الوفود كثير ممن لم يدرك طبيعة

هذا الدين، ولم يبلغ عنده الايمان تلك الدرجة التي تجعل صاحبها يرى فيهـا حياة ومنهجاً ، تنقلب شؤونه كلها لتوائم هذه العقيدة .

وربما ظن بعضهم أن الاسلام لا يتعدى مكارم أخلاق وسلوكاً اجتماعياً .

٦ - إن هذه الظواهر لا تنفي وجود الصادقين في إيمانهم بين هذه الوفود ، بل كان كثير منهم يطلب الحق ، ويسعى لمعرفته ، ويحرص على فهم حقائق هذا الدين ، وما شرعه لهم ، فيسأل عن الفرائض والسنن والواجبات لكي يلتزم بها في حياته وينال مرضاة الله عز وجل .

ونقتطف بعض الفقرات من ظلال القرآن تعقيباً على أمر هذه الوفود :

« كان فتح مكة في العام الثامن الهجري ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف - وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة - قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجاً جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الايمانية وفيهم كارهون للاسلام منافقون ، وفيهم المنساقون الى الاسلام الظاهر القاهر ، وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الاسلام الجوهرية ، والامتزاج بروحه الحقيقية .

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزاً قوياً دون انسياح الاسلام في الجزيرة العربية فقد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة ، فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسي وأدبي كذلك ، فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب في أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلي المعركة بين قريش وبين هذا النبي من أبنائها . فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف في الطائف وكانت قبائل اليهود الثلاث في المدينة قد خضدت شوكتها نهائياً وأجليت بنو قينقاع وبنو النضير الى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير ، كان ذلك ايذاناً بدخول الناس في دين الله أفواجاً وانسياح الاسلام في أرجاء الجزيرة كلها خلال عام واحد .

غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الاسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر ، ولكن على نطاق أوسع ، بعدما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ، ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول الى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الاسلام في الجزيرة ، ولكن الله

الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بدر، كما أنه سبحانه وتعالى كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء به فتح مكة والله أعلم حيث يجعل رسالته [1] .

---

١ ــ انظر في ظلال القرآن ج ١٠ ص ٨٨ .

الفصل الثالث

١ – فتنة الرِّدة

لم تمض الا فترة وجيزة على عودة الوفود التي بايعت رسول الله – ﷺ – الى مواطنها حتى توفي وذهب الى بارئه بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وترك للناس إماماً للهدى لا يتغير ولا يبلى .

كانت وفاته – ﷺ – خطباً جليلاً ، زعزع المسلمين وأذهلهم ، وكاد يطير بألبابهم ، لولا كتاب الله عز وجل ، ذلك الحصن الهادي الذي لا يبلى ما دامت السموات والأرض ، فأعاد اليهم الرشد والهدى ، وهداهم سبيل السداد ، وأزال عن قلوبهم زلة العواطف ما الجزع .

ولكم كانت المواقف عظيمة – مع فداحة الخطب وعظم

المصيبة – تلك التي تجلت في اجتماع المهاجرين والأنصار لاختيار الخليفة ، وتحمل مسؤولية الدعوة .

أنحسب الأمر جرعة ماء ؟ أم أنه اقتسام غنيمة؟ لا وربي ! فالصحابة – رضوان الله عليهم – كثيرون والسابقون الى الاسلام جمع كبير ، والمختارون كثر والمؤهلون للقيـــادة عدد كبير أيضاً .

أيسهل أمر اختيار الخليفة من بين هذا الجمع الكبير المؤهل لهذه المهمة ؟

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة وابن عوف وسعد وأبو عبيدة وكبار الأنصار وفضلائهم وأعداد أكثر وأكثر من المهاجرين والسابقين .

ومع ذلك لم تمض إلا ليلة واحدة –بل لم تمض إلا ساعات– والدموع في المآقي ، والغصة في الحلوق ولكن المهمة أعظم ، والمسؤوليـــة أكبر ، وأمر المسلمين لا ينبغي أن يترك لهجمات الرياح ، ونزعـــات العواطف . وهكذا كان حسم الموقف ، سريعاً ، جامعاً ، رائعاً موحداً ، مؤمناً ، لأنه الايمان ، ولأنهم المسلمون ولأنها الأمانة التي يثقل حسابها عند الله .

توفي رسول الله – ﷺ – في ضحى يوم الاثنين في الثـــاني

عشر من ربيع الأول سنة احدى عشرة من الهجرة ، واشتغل النـــاس ببيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة بقية يوم الاثنين وصبيحة الثلاثاء في المسجد ، وتمت البيعة العامة[١] .

وكانت وفـــاته – ﷺ – أعظم خطب يواجه المسلمين فاشتدت الحـــال ، ونجم النفاق بالمدينة ، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون من أداء الزكاة الى الصديق – رضي الله عنه – ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة[٢] .

عند هـذه الفتنة المخيفة ، وقف المسلمون الصادقون : قوة ايمانية ظاهرة ، وصفاً اسلامياً متراصاً ، ومجتمعاً ربانياً مهدياً ، ودولة اسلامية طائعة ، لم يخـــافوا الجموع المرتدة ، ولم ترهبهم القوى المتألبة. لقد امتحنوا في مكة وصبروا وثبتو وانتصروا، لأنهم صدقوا الله البيعة ، وأحسنوا الاسلام .

وامتحنوا في الحبشة فثبتوا وصبروا وانتصروا لأنهم باعوا لله أرواحهم ، ونظروا الى مرضاة الله في اعمالهم ، فنالوا مـــا أخلصوا له وسعوا إليه . وامتحنوا في المدينـــة ، فصبروا ، وثبتوا ، وانتصروا لأنهـم حافظوا على عهد الله ، وأحسنوا

---

١ – البداية ٦ – ٣٠١ .
٢ – المصدر السابق ٣٠٤ .

اسلامهم ، ووقفوا على حدود الله منيبين مؤمنين صادقين .

وامتحنوا في مواطن كثيرة، فصبروا ، وثبتوا ، وانتصروا لأنهم أخلصوا في ايمانهم ، واستقاموا في طاعة الله .

كانت الردة خطراً عظيماً ، هدد المدينة ومكة ومجتمع المسلمين كله ، بل قام المنافقون يودّون أن تنقض عرى الاسلام من جديد .

وقف أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – مؤمناً واثقاً بربه واعياً ، لا يخاف الكثرة الضالة ، راشداً ، لا تضلله فداحة الخطب ، متبصراً ، لا تغشي أنظاره ظلمات الفتنة .

رأى المسلمون الموقف شديداً – وجيش أسامة بن زيد ، يقف في ظاهر المدينة ينتظر أمر الخليفة – فأشاروا على الخليفة أن لا يبعث الجيش الى تخوم الشام ليستعين به في قتال المرتدين.

واحتج المسلمون بأن الغاية التي جهز من أجلها الجيش كانت في حالة السلامة ، وتغير الموقف بعد ذلك ، لظهور الفتنة . ولكن الصديق امتنع عن ذلك ، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ الجيش وقال: « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله – ﷺ – ولو أن الطير تخطفنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرّت بأرجل أمهات المؤمنين ، لأجهزن جيش أسامة » .

وأمر الحرس يكونون حول المدينة [1] .

وبعث الجيش ، وأطمأن المسلمون ، لأنهم يعرفون الصديق وايمانه ، ويعلمون أنه المسلم الذي لا يداخل اسلامه ضعف أو فتور أو جاهلية ، وهو الذي لا تثنيه الحوادث والفتن والخطوب .

ومع ذلك فقد كان الخطر كبيراً ، واضطر المسلمون أن يضعوا الحرس حول المدينة ، كي لا يغير المرتدون من الأعراب عليها .

وكان تجهيز جيش أسامة انتصاراً معنوياً كبيراً أرعب الأعداء ، وبلبل أفكارهم جميعاً ، فكان هذا الجيش لا يمر بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم وقالوا :

ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة .

٢ – ظهور الاسود العنسي

أول الفتنة كانت في أواخر حياة الرسول – ﷺ – في السنة العاشرة للهجرة ، إذ ظهر هذا اللعين في سبعمائة مقاتل من بلدة يقال لها – كهف حنان – في اليمن ، وكتب إلى عمال

---

١ – البداية ٦ – ٣٠٤ .

رسول الله – ﷺ – : أيها المتمردون علينا امسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى بـه ، وأنتم على ما أنتم عليه ، ثم توجه إلى نجران فأخذهـا ، ثم قصد إلى صنعاء واحتلها ، وفر عدد من عمال رسول الله – ﷺ – وذهبوا إلى حضرموت ورجع بعضهم إلى المدينة [1] لاخبار النبي بمـا حدث ، واستوثقت اليمن كلها للأسود .

وحين بلـغ الأمر رسول الله – ﷺ – كتب إلى المسلمين في اليمن وأمرهم بمقاتلة الاسود ، ومصاولته ، فقام معاذ بن جبـل بهذا الأمر بمن معه من المسلمين .

وعظمت الفتنة ، وارتد مع الأسود من ارتد من أهل اليمن وعامله بقية المسلمين بالتقية ، انتظاراً للفرصة المواتية .

وكان عامله على مذحج عمرو بن معدي كرب ، وأسند أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبنـاء إلى فيروز الديلمي وداذويه ، وتزوج بامرأة شهر بن باذام الذي كان يتولى أمر صنعاء من قبل الفرس ، وقد أسلم وحسن اسلامه ، وأبقاه النبي أميراً عليها ، وقتل عندما دخل جيش الأسود صنعاء .

وكانت امرأته هذه مؤمنة بالله ورسوله ، ومن الصالحات ،

---

١ – انظر الى ج ٦ البداية ٣٠٦ وما بعدها .

ولما وصل كتاب رسول الله – ﷺ – إلى المسلمين باليمن بمقاتلة الأسود ، قام معاذ بن جبل – رضي الله عنه – بالاعداد للأمر ، وكان قد تزوج امرأة من السكون يقال لها رملة : فحزبت عليه السكون وأعانته لصبره فيهم ، وبلغوا كتاب النبي إلى عمال النبي – ﷺ – ومن قدروا عليه من الناس ، واستطاع المسلمون الاجتماع بقيس بن عبد يغوث أمير الجند عند الأسود – وعرفوا أنه اختلف مع الأسود ، وغضب عليه واستخف به وهم بقتله– وعرفوا أن فيروز الديلمي قد اختلف مع الأسود أيضاً وكذلك شأن داذويه .

ولما وصل رسول النبي – صلى الله عليه وسلم– إلى قيس بن عبد يغوث وأبلغه أمر رسول الله بقتال الأسود ، شعر وكأنهم نزلوا عليه من السماء ، ثم اتفق مع بقية المسلمين على الفتك بالأسود وبدأوا بإعداد الخطة بوعي ودقة وجد وثبات .

واختاروا – لتنفيذ المهمة – كلا من قيس – وفيروز وداذويه ، واستعانوا على أمرهم بزوجة شهر بن باذام التي تزوجها الأسود بعد مقتل زوجها المسلم .

وكانت الخطة تقضي بأن يقوم الثلاثة بالدخول على الأسود في منامه بالاستعانة بزوجته المسلمة وقتله ، ثم الخروج إلى الناس الذين ينبث بينهم المسلمون ويعلنون مقتل الأسود الكذاب

المتنبيء ، ويؤذن مؤذن المسلمين ، وكان ذلـــك حيث احتزّوا رأسه بمعاونة هذه المرأة المؤمنة وخرجوا على النـــاس وأعلنوا ذلـــك وأذن المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأن عبهلة (العنسي) كذاب ثم ألقى برأس الأسود إليهم فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم ، وظهر الإسلام وأهله [1] ووصل الخـبر إلى المدينة بعد تجهيز جيش أسامة في أواخر ربيع الأول .

وكان اجتماع أمر المسلمين ، وحسن اعدادهم سبيلاً للقضاء على الأسود العنسي .

فكانت هذه أول حلقة من الفتنة والارتداد في بداية خلافة الصديق ، عندما كانت بقيـة القبائل تتحفز لضرب الإسلام ، بعد أن تفاقمت الفتنة ، وعمت الردة .

* * *

٣ – صور من الفتنة

أما بقية الناس ؛ فقد انحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفه بعدما أسلموا ، مع عدد كبير من الناس باليمامة .

---

١ – انظر البداية ٦ – ٣٠٥ .

والتقت بنو أسد وطيء على طليحة الأسدي – وارتدت عن الإسلام . وادعى كل من مسيلمة وطليحة النبوة ، لتزيد الفتنة وينتقض أمر الاسلام من أساسه ، كي تزول صورته في الأذهان والنفوس بأنه أمر السماء ، وبذلك تزول دواعي الإيمان كله – وتتزلزل في القلوب والنفوس .

* * *

٤ – مواجهة الردة

قام الصديق – رضي الله عنه – فعين على أنقاب المدينة [١] حراساً يبيتون بالجيوش حولها ، ومن الأمراء على الجند : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطليحة بن عبد الله ، وسعد ابن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، عبد الله بن مسعود .

وأراد بذلك أن يوفر الأمن للمدينة ريثما ينظم الصفوف ، ويجهز السرايا والجيوش لقتال المرتدين . بعد أن يتبين حقيقة أمرهم ، ويعرف مواقف بقية الناس من العرب .

وبدأت الوفود تقدم المدينة ، فيقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة .

---

١ – منافذها وطرقها

ومنهم من امتنع عن دفعها للصديق محتجاً بأن الله أمر رسوله أخذها دون غيره بقوله تعالى « خــذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهـم » فقالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا .

٥ – (الاسلام المنزل ، والتحريف المشرك)

عندما عمت الردة ، وامتنع كثير من الخلق عن دفع الزكاة ، أشار بعض المسلمين على الخليفة أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الايمان في قلوبهم ، ثم يزكون بعد ذلك .

ولكن الصديق – رضي الله عنــــه – صاحب رسول الله – ﷺ – وخليفته ، والمهــــاجر المجاهد المؤمن ، الذي فهم الاسلام قولاً وعملاً ، وأنه منهج متكامل شامل رباني .

الصديق الخليفة هذا كان يعرف أن الأمر ليس بهذه الصورة وليست بهذه الموازين .

إن أمر الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام ، والجهاد ، وغيرها من شعائر الاسلام ، وتشريعاته ، ليس في حقيقته إلا أمر الاخلاص في العبودية لله سبحانه وتعــــالى ، أو اتخــاذ شركاء معه .

فالإنسان إما أن يكون مسلماً أو لا يكون .

أما حينما يأخذ الرجل من الاسلام ما يستهويه، ولا يتناقض مع مصالحه ، وشهواته ومطامعه ، ثم يأخذ من الجاهلية مـــا يستهويه أيضاً ، فذلك الضلال والشرك والتشويه البغيض معاً

إن انتقاص منهج الله في شعيرة ، أو أمر ، يعني الاعتقاد بأنه منهج ناقص أو قاصر ، أو ضال ، وحاشا لله أن يكون ذلك .

فإذا ترك الصديق مانعي الزكاة ، أو الصلاة ، أو الطامعين في المناصب والزعامات والمال وغير ذلك ، إذا تركهم وشأنهم ورضي بهم في صفوف المسلمين ، فكأنه وضع نفسه موضع الاله سبحانه وتعالى الذي يغفر ويشرع ، ويكلف ويعفي .

وإذا ترك هؤلاء وتألفهم على حساب العقيدة ، فكأنه رضي أن يوكل أمر التشريع الى الناس ، وينقض شرع الله .

والدين الاسلامي منهج متكامل ، يقوم أساساً على قاعدة الايمان المطلق بالله سبحانه وتعالى ، ايمـــاناً حقيقياً ، عميقاً . واضحاً ، يكون من بعده الاستسلام لله سبحانه في كل الشؤون ، والالتزام المطلق في كل الأمـــور ، ونزع كل عبودية لغير الله سبحانه وتعالى في عامة الشؤون وخاصتها .

لهذا كان موقف الصديق واضحاً ، ثابتاً ، مما جعل المسلمين كلهم يطمئنون الى هـــذا الموقف ، ويتنبهون الى حقيقة غابت

عنهم قليلاً في غمرة الأحداث المفجعة .

روى الجماعة سوى ابن ماجة عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : علام تقاتل الناس ؟

وقد قال رسول الله - ﷺ - أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها .

فقال أبو بكر : والله لو منعوني عناقاً (وفي رواية عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله - ﷺ - لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

وعرف المسلمون أن الأمر أمر الاسلام كله ، فقاموا يقاتلون المرتدين مهما كانت قوتهم ، ومهما عظمت شوكتهم .

وكان لا بد من هذا الايضاح وبهذه الصورة العملية التي تحتاج الى التضحية والجهاد والدماء والأرواح ، ما دام الأمر يتعلق باقرار العبودية لله ، وإقامة منهجه في الأرض .

وبلغت الردة حداً غطت فيه وجه الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة !

ارتدت أسد ، وغطفان وطيء وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن المتنبىء .

وارتدت الأعراب والقبائل حول المدينة من بني عبس وبنو مرة ، وذبيان ، وبنو كنانة .

وارتدت كندة وما يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندي .

وارتدت مذحج ومن يليها وعليهم الأسود العنسي الكاهن المتنبىء .

وارتدت ربيعة مع المغرور بن النعمان بن المنذر .

وكان بنو حنيفة يقيمون على أمر مسيلمة الكذاب .

وارتدت سُليم مع الفُجاءة ، واسمه انس بن عبد ياليل .

وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة .

ولم يبق إلا المدينة ومكة ومن والاهما على الاسلام الصحيح وهم وحدهم القاعدة الصلبة التي أنيط بها حمل الأمانة لأنهم عرفوا معنى الاسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى وفهموا معنى ايمانهم بالله ، فقاموا يطلبون مرضاته في جهاد المرتدين .

٦ ــ الوفود ــ والمفاوضات ــ والعقيدة

وأوفد بعض المرتدين وفوداً الى المدينة لمفاوضة الخليفة

فأرسلت أسد وغطفان وطيء وفوداً الى المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس بالمدينة ، وقالوا لأبي بكر أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة ، فقال لهم: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم ، وردهم فرجعوا الى عشائرهم وأخبروا المرتدين بما رأوا في المدينة ، وأشاروا الى قلة أهل المدينة، من المسلمين ، وطمعوا في احتلالها ولم يلبثوا حتى أغاروا على المدينة بعد ثلاثة أيام. وكان أبو بكر – كما تقدم – قد وضع الحرس على الأنقاب فأعلموه بالغارة ، فخرج في أهل المسجد على النواضح للاقاتهم ، فتفرق المرتدون ولحق بهم المسلمون على ابلهم حتى فرقوهم وتغلبوا عليهم

وكان الصديق – رضي الله عنه – قد استنفر جميع المسلمين، وألزمهم بحضور المسجد ، وقال لهم :

« إن الأرض **كافرة** ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ، ونوادعهم وقد أبينا عليهم ، فاستعدوا وأعدوا » .

فكانت هذه يقظة ايمانية جريئة ، وبصيرة اسلامية واعية، لأنه أعطى الله عهداً أن يعبده حق العبادة ونزع من نفسه وقلبه وفكره الشرك والجاهلية ، ولهذا لم يلجأ الى موادعة الكفر ، والرضوخ لأي نوع من الشرك أو الرضى بأمر الجاهلية، بل هو الكفر – كما سماه – وعليه أن يستعد للأمر ويشمر عن

ساعد الجد والجهاد . معتمداً على الله سبحانه ، طالباً مرضاته ، ساعياً الى الشهادة في سبيله .

لقد كان الطريق صعباً شائكاً ، والفتنة سوداء مظلمة والمحنة كبيرة ، ولكنها تهون على أصحاب الايمان الذين لا يزنون الأمور بموازين الأرض والمادة ، ويعلمون أن الأمر بيد الله ، والفوز بمرضاته وحده .

أما المدّعون والمهزومون – داخلياً – فإنهم سيجزعون من الكثرة ، وسيخافون من النتيجة ، وسيزنون كل أمر بميزان المنفعة والكسب المادي ، والظفر الدنيوي وشتان بين الطريقتين !

٧ – الاعداد والحسم

خرج الصديق – رضي الله عنه – على رأس صحابة رسول الله – ﷺ – لقتال المرتدين حول المدينة في المرحلة الأولى لتأمين القاعدة الآمنة للمجتمع الاسلامي وواجهوا عبس وذبيان وبني مرة ومن تابعهم من بني كنانة ، حيث تجمعوا وأغاروا على المدينة ، وكان طليحة بن خويلد الكاهن قد أمد المرتدين بابنه حبال ومعه قوة من قومه .

واستطاع المسلمون التغلب عليهم، وتفريقهم ، وقتلوا عدداً

منهم ، وتفرق الباقون ، فكانت هذه أول الفتح . ولم يجد المرتدون أمامهم إلا الفرار ، بعد الاذلال والهزيمة التي لحقتهم ، ودفعهم الحقد والكفر الى الانقضاض على المسلمين في قبائلهم فقتلوهم ، كما فعلت بنو ذبيان وغيرها ، وفعلت بقية القبائل بالمسلمين ما فعلته ذبيان ، فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة .

٨ - الحشد والجيوش

ولما بلغ الأمر هذا الحد الخطر ، شمر المسلمون الصادقون لمجابهة هذه الردة ، وإعادة الناس الى الدين ، وكف أيدي الطغاة المجرمين عن قيادة الناس بعد أن منعوا الحق من الوصول الى الناس .

عند ذلك قام أبو بكر بدعوة الناس الى الجهاد ، وكان النصر الأول على الأعراب حول المدينة قد زاد من حماس المسلمين .

ثم عاد جيش أسامة ، واستراح الجند أياماً من سفرهم وتجمع المسلمون عند ذي القصة ، وهناك عقد أبو بكر الألوية لقادة الجيوش ، وجند الناس لمحاربة المرتدين ، وهي أحد عشر لواءً وهم :

١ - لواء لخالد بن الوليد الذي أمره بالمسير الى طليحة بن

خويلد فإذا فرغ منه سار الى مالك بن نويرة بالبطاح .

٢ – لواء لعكرمة بن أبي جهل وأمره بالمسير الى مسيلمة الكذاب .

٣ – ولواء للمهاجر بن أمية وأمره بالمسير الى جنود الأسود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ويمضي بعدها الى كندة بحضرموت .

٤ – ولواء لخالد بن سعيد بن العاص وبعثه الى مشارف الشام .

٥ – ولواء لعمرو بن العاص وأمره بالمسير الى قضاعة وديعة والحارث .

٦ – ولواء لحذيفة من محصن الغلفاني وأمره بالمسير الى أهل دبه .

٧ – ولواء لعرفجة بن هرثمة وأمره بالمسير الى مهر .

٨ – ولواء لشرحبيل بن حسنة وأمره بالمسير في أثر عكرمة ابن أبي جهل ، وقال له : اذا فرغ من اليمامة أن يلحق بقضاعة وأن يبقى على خيله يقاتل أهل الردة .

٩ – ولواء لطريفة بن حاجز ، وأمره بالمسير الى بني سليم ومن معهم من هوازن .

١٠ – ولواء لسويد بن مقرن، وأمره بالمسير الى تهامة اليمن.

١١ – ولواء للعلاء بن الحضرمي وأمره بالمسير الى البحرين .

ثم كتب الصديق الى العرب المرتدة كتاباً واحداً ، أمر قادة الجيوش أن يقرأوه عليهم وبين فيه أمر الاسلام ، ودعاهم الى الهدى ووضح حقيقة الايمان بالله عز وجل ، ليكون الأمر واضحاً ، ولكي لا تكون للناس حجة عند الله ، فمن استجاب لداعي الله ، تركه المسلمون ، ومن أبى وجب جهاده وقتاله .

ونفذت الرسل أمام الجيوش، تقرأ كتاب الخليفة ، وتدعو الناس للايمان والرشاد ، وتحذر من الضلالة والغي واتباع المردة الكافرين ، والمرتدين الناكثين بعهد الله والخارجين عن طاعته .

ثم كتب العهود للأمراء وجاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله – ﷺ – لفلان – حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع من الإسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سره وعلانيته ، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم، فيدعوهم برعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي

عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم الذي لهـم ، لا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن مقاتلة عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل ، وأقر له ُقبل ذلك منه، وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجابوا الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتـله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وان يمنع أصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعـلم ما هم لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصـد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجـل بعضهم عن بعض ، ويستوحي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول »[1] .

والعهد واضح ، وكتب الصديق للناس واضحـة ، إنه تبين معنى الإيمان على حقيقته الربانية ، وتوضح لهم الإسلام الكامـل الشامل ، وتدعوهم لترك الشرك والردة ، لقد دعاهم للإيمان بالله وحده ، لا شريك له، والإيمان برسوله هادياً ومبشراً ونذيراً،

---

١ — أنظر الطبري ٣ — ٢٢٦ وما بعدها والبداية ٦ — ٣١٥ ومـا بعدها .

ونبذ أمر الجاهلية كلها ، وعدم اتباع الشيطان والغواية .

والإيمان بالله لا يكون في قبـول أمر من منهج الله وترك أمر آخر حسب الأهواء والمصالح ، ولا يصح في حال دون حال ، بل الايمان في كل شيء : في العقيدة والعبادة . في المال والجسد . في الظاهر والباطن . في البيت والمجتمع والنفس ، وفي الدنيـا والآخرة . ومضت الجيوش مجاهدة ، هادية داعية الله ، لترسيخ مفهوم الايمان ، ولتحقيق معنى العبودية لله سبحانه ، أما من بغى وآثر اتباع الهوى والشيطان ، والشرك بالله ، فله حـد السيف وعزيمة المؤمنين حتى يعود إلى طاعة الله ورسوله .

الفصل الرابع

١ ـ ملاحظات حول حروب الردة

لا نريد أن نقف طويلاً عند تفصيلات المعارك ، فليس غرضنا عرض هذه الوقائع الحاسمة في تاريخ الاسلام ، أو استعراض صور البطولة والايمان والثبات والصبر للمجتمع الاسلامي الصلب الذي كان يضم المهاجرين والأنصار والذين أسلموا قبل الفتح وظهروا هنا حصيلة الدعوة الاسلامية في سنواتها العشرين ، وهي حصيلة قادرة – باذن الله – على الثبات أمام المرتدين ، والانتصار على كل المفاجآت والانحرافات والمعوقات ، انتصاراً في الايمان والثبات والعقيدة والحروب.

٢ ـ المميزات الاساسية لمجتمع العقيدة :

يالله كم كانت تلك المعارك ضارية حين واجه هذا المجتمع المسلم

جموعاً حاشدة وحاقدة ، تضم قبائل ثائرة بطغيانها وطيشها وراء زعماء حاقدين طامعين ، ولم ينقص هذه القبائل اعداد ولا عدة ولا شجاعه – فهم كثيرون ، شجعان ، وفيهم أبطال مشاهير ، ومعهم أسلحة وعتاد . ولكن !

العصبة المؤمنة التي رباها رسول الله – ﷺ – من المهاجرين والأنصار ، مع بقية المسلمين الذين كونوا مجتمع المدينة كانوا نماذج فريدة ، تعرف حدود عقيدتها ، وتفهم طبيعة ايمانها ، وتؤمن بمنهج دعوتها ، وتلتزم بمقتضيات إيمانها . إنهم باعوا نفوسهم الى الله ، واسترخصوا الأرواح في سبيل العقيدة .

ولكأني بصاحب الدعوة محمد – ﷺ – يمضي ثلاثاً وعشرين سنة في مكة والمدينة ، وهو يعد هذه الجماعة بالعقيدة الواضحة الراسخة ، والتصور الشامل – والتطبيق الدقيق – والوعي المبصر حتى ينتفي أدنى شك يخامر الاذهان، أو وهن يطرأ على القلب أو ظن يدور في النفس .

وكان يصنع رجالا يحملون هذه العقيدة فكراً وشعوراً ، بكل أبعادها ووقائعها بالتمثل والتطبيق والممارسة .

وكان يربي مجتمعاً ، يتلقى أمر الله فيغدو لديه فعلاً وتطبيقاً ويتحول الى وقائع واحداث وسلوك .

وكان عمله – عليه السلام – أن يصنع من العقيدة رجالا

يحملونها فتهديهم ، ويطبقونها فترفعهم ، ويدعون لها فتمنحهم الصبر والثبات والفوز .

لم تكن الكثرة غـــاية للدعوة ، ولم يكن التوسع الأفقي مطمعاً يسعى إليه المجتمع الاسلامي قبل أن تتحول العقيدة (تصوراً وشعائر وحياة كاملة) في نفوس المؤمنين بها .

وهكذا أمضى رسول الله – ﷺ – ثلاثاً وعشرين سنة في مكة والمدينة في مراحل الصبر والدعوة سراً ، والاعـــداد المتأني والمجاهدة والتبليغ وسط ظلامات الجاهلية ونكيرهـا المسعور ، وهكذا أمضى ثلاثاً وعشرين سنة في مرحلة الجهاد والتطبيق علانية ، ومواجهة الحقد الجاهلي ، والتآمر اليهودي وسط كثرة الأعداد ، وتآمر الحاقدين .

ولما توفاه الله سبحانه وتعالى ، كان قد انتهى من إقامة هذا المجتمع ، وقوامه المهاجرون والأنصار ، وبقية المسلمين الذين انضموا إلى صفوف المسلمين وهم مطمئنون إلى أنه الحق وأن الجاهلية باطل ، بعـــد أن منعهم الفساد والكبرياء ، والشعور بمرارة الرضوخ والاذعان لأمر من عـــادوه بعد التأبي والتمرد والمواجهة ، وظل ذلك أمراً طويلا حتى انهزمت كل مبررات الجاهلية ، وبايعوا الله صادقين .

كانت هذه الجماعة قد ربيت على الأيمان فأصبحت مرضاة

الله غايتها ، وتطبيق منهجه حياتها، والفوز بجنته أقصى مناها.

وكانت هذه الجماعة قد اكتسبت فكراً اسلامياً خالصاً ، بعد أن تطهرت في مرحلة الاعداد الواعي من ملابسات الجاهلية وأفكارها وتصوراتها الموروثة أو المتجددة .

وكانت هذه الجماعة قد تسلحت بحس اسلامي شفاف . بعد أن تخلصت في مرحلة المحن الصعبة ـ في المعارك والغزوات ـ من ملابسات الشعور الجاهلي ، والعواطف الجاهلية بكل أشكالها الموروثة أو المتجددة .

وكانت هذه الجماعة ، قد مارست تجربة اسلامية خالصة بعد أن عرفت أوهام الشرك ، وخبرت سلوك الجاهلية وأيقنت أن عمل المشرك باطل ، ورأت أن حركة الانسان والجماعة والكون لا تصدر إلا عن عقيدة ربانية ، وتتلون ـ دوماً ـ بلون هذه العقيدة .

وبعد هذا الاعداد ـ على بصيرة ، وبقدر الله ورعايته ـ مضى رسول الله ـ ﷺ ـ الى ربه راضياً مطمئناً، لأنه ترك أمة ـ لا تتفاخر بالكثرة والعدد والأحساب ـ قوام حياتها كتاب الله وسنة رسوله، وغاية مناها أن تحظى بمرضاة الله وأن تظل معه : فكراً وعبادة وسلوكاً وحياة، ولهذا فكل واحد من هؤلاء : أمة وحده ، وكل واحد من هؤلاء رسول الى غيره يحمل الحق ،

ويدعو الى الله ، ويقف في وجه الباطل ، ويجاهد أعداء الله . وكانت وفاته -ﷺ- صدمة مفاجئة للمسلمين ، لفقدانهم القدوة النبي المرسل .

ولكن الصدمة لم تطمس على أبصارهم أو بصائرهم ، ولم تكبل إرادتهم وتفكيرهم ، ولم تقعد بهم عن القيام بواجباتهم. بل استطاعوا أن ينهضوا بالأمر من الساعات الأولى في اجتماع السقيفة ووقفوا صفاً واحداً ، يحمل عبء الدعوة ، وإقامة المجتمع الاسلامي وبناء الدولة الاسلامية ، معاهدين الله عز وجل على أن يبقوا على عهد الله ورسوله ، مثمراً ايمانهم ، يعطي خيراً ، ويقف على الحق .

كانت كلمة الصديق - رضي الله عنه - شعاراً لهذا المجتمع الرباني الواعي وهو يؤكد ارتباطه بمنهج الله ، ويصل غايته بمرضاة الله :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » آل عمران ١٤٤.

وأعلن الصديق أنه « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

هذا المجتمع ، وهذه الفئة المؤمنة ، قادرة دوماً - بمشيئة

الله ـ على حفظ منهج الله من عبث الحاقدين ، أو تـأثير الماكرين ، أو مساس الباغين .

فلا عجب بعد هـذا أن نرى الصديق ـ مع المهاجرين والأنصار ـ ينهض لرد الناس الى دينهم ـ ومواجهة فتنة الردة بقوة وايمان ويقين ، لا يخشى جموعـاً تكاثرت ، ولا حشوداً تأهبت ولا قبائل ثارت ، ولا زعامات مردت وتنبأت . وإنما كان يخشى الله سبحانه وتعالى يوم يحاسبه مع المؤمنين على أمانة الحفاظ على هذا الدين ، والمسؤولية عن منهج الله .

٣ ـ منازع المرتدين

ما هي مبررات الردة ؟ وما هي أسباب الامتنـاع عن تطبيق منهج الله في شأن الصلاة أو الزكاة أو غيرهما ؟

وما هي الأمور التي يمكن استنتاجها من وراء هذه الظاهرة الخطيرة في أول مرحلة من مراحل المجتمع الاسلامي ؟

لا بد لنـا ـ في سبيل الوصول الى الأجوبة المقنعة ـ من استذكار المقدمات والاطار الذي حاولنا رسمه للمجتمع الاسلامي في نشأته وفي مواجهته لفتنة الردة .

ومن جهة أخرى لا بد لنا من استذكار تلك الأعوام الثلاثة؟

الثامن والتاسع والعاشر، والتأكيد على العام الأخير منها وطبيعة الدخول في الاسلام — كما رأيناها في قدوم الوفود عن القبائل والعشائر مبايعة مسلمة — في هذا العام .

وعند وضوح هذه الصورة متكاملة ، نتمكن من استنباط بعض الأسباب ، ورصد عدد من الظواهر التي تفيد المجتمع الاسلامي في نشأته وتكونه ،ومجابهة ظواهر وصعاب ومفاجآت قد يجدها — لأول وهلة — أمراً محيراً وغريباً ، أو ظاهرة جديدة ، تترك آثارها المجرحة في النفوس ، وتحفر آخاديد من الآلام في أعماق الفرد المسلم الذي لم يدرس مثل هذه الحالات ومن هذه الصورة نرى الملاحظات التالية :

١ — كان هناك فرق كبير بين اسلام المهاجرين والأنصار ، وبقية المجتمع المدني من جهة ، واسلام غيرهم ، حيث أن اسلام المجتمع المدني بكافة عناصره كان في ظروف لا أمل فيها لرجل أن يظفر بمكسب دنيوي ، ولا مطمع له في زعامة أو رئاسة أو مال أو أية حظوة دنيوية .

ولكن هذا النوع المسلم ، كان يدخل الاسلام وهو مؤمن بأن الله وحده القادر الخالق المدبر الرازق المحيي والمميت ، لا شريك له ، له الأمر كله في السماوات والأرض وهو عليم خبير قدير .

وهذا الايمان المبصر الواعي يتمثل في خلع كل عبودية لغير

الله -- في مجال التصور والاعتقاد، والشعائر والعبادة،والتشريع والسلوك والمعاملة وجميع شؤون الحياة .

ولا يؤمن المسلم بهذا حتى يصل الى درجة من القناعة الواعية، الحارة التي ترسخ في يقينه أن عدم اسلامه ضياع وموت وخسارة ، ووراءه جهنم اللاظية ، وأن في اسلامه السمو والكرامة والحرية والعزة والانتصار ، وتحقيق أسمى غايات الانسانية على وجه الأرض .

والمسلم -- هذا -- لم يكن يعبأ -- بعد اسلامه -- بما يلقاه من سخرية وتسفيه وايذاء وتعذيب ، وعدوان ومطاردة واغتراب ، ما دام ذلك في سبيل الله عز وجل .

وهو يؤمن أن لا خيار للانسان بين أن يبقى على جاهليته أو يدخل في دين الله عز وجل، لأن في الجاهلية سلب لمعنى انسانيته وتسفيه لعقله ، وإهانة لكرامته ، وضياع في دنياه وآخرته .

وهؤلاء المؤمنون كانوا مهيئين لمواجهة كل المحن والصعاب في سبيل العقيدة ، وكما قال سيد قطب رحمه الله « يومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والانضمام الى التجمع الاسلامي الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة إلا كل من نذر نفسه لله ، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة ، والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض

الأحيان .

وبذلك تكون للاسلام قاعدة صلبة ، من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي ، فأمـا العناصر التي لم تحتمل هـذه الضغوط ، فقد فتنت عن دينهـا ، وارتدت الى الجاهلية مرة أخرى ، وكان هـذا النوع قليلاً ، فقد كان الأمر كله معروفاً مكشوفـاً من قبل ، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية الى الاسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك مع السابقين من الأنصار ... وهم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد في المدينة [١] .

أما بقية المسلمين ، فلم يكونوا على هذه الدرجة من اليقين ، ولم يواجهوا من المحن والتجارب ما يصقل ايمـانهم ، ويزيدهم يقيناً ، ويدلهم على أن الاسلام بيعة الى الله ، وايثار لمرضاته عن كل ما في الدنيا من مطامع وآلام .

---

١ - أنظر في ظلال القرآن ج ١٠ ص ٨٠ وما بعدها.

٢ — إن وجود هذه الجماعة المؤمنة التي كونت القاعدة الصلبة هي التي حمت الاسلام من أن ينهار أمام الفتنة العارمة لقبائل العرب المرتدة بعد وفاة رسول الله — ﷺ — ولو لم يكن لهذه الفئة تلك الميزة الفريدة من الايمان والوعي والثبات لما استطاعت أن تنتصر على المحنة ، وتواجهها بشجاعة ، وتبدد أوهام الذين أشعلوا الفتنة وأظهروا العصيان ، ثم حولت نتائج الفتنة الى طاقة رافدة صحية للاسلام والمسلمين في مقتبل الأيام .

ولنسمع سيد قطب يحلل ذلك فيقول : « غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الاسلام ، قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد أنتصار بدر — ولكن على نطاق أوسع — بعد ما كاد المجتمع أن يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ، ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول الى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الاسلام في الجزيرة ، ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء بعد انتصار بدر ، كما أنه سبحانه كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء بعد

فتح مكة والله أعلم حيث يجعل رسالته ...

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين... وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة ، فكان وجودهم سبباً في اختلال التوازن في الصف « بالاضافة لعوامل أخرى » .

وكذلك كان مـا ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ، ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الايمانية والتنظيمية المخلخلة ...

وعندما قبض رسول الله - ﷺ - بعد عامين من الفتح ، فارتدت الجزيرة العربية كلهـا ، ولم يثبت الا مجتمع المدينة - القاعدة الصلبة الخالصة - فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها:

إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الاسلام في نفوس هذه الأفواج الكثيرة التي دخلت في دين الله بعد الفتح بمستوياتهـا الايمانية المخلخلة ، فلما قبض رسول الله - ﷺ - ارتجت الجزيرة المخلخلة ، وثبتت القاعدة الصلبة ، واستطاعت هذه القاعدة ، بصلابتها وخلوصها وتناسقها ، أن تقف في وجه التيار ، وأن ترده عن مجراه الجارف ، وأن تحوله

الى الاسلام مرة أخرى[1] .

وهذا يعني أن إعداد قاعدة للمجتمع الاسلامي الوليد — في أية ظروف وخاصة في مرحلة التكوين ، أمر مهم ، بل هي من أولى مهـــام القيادة المسلمة قبل أن ننظر الى أمـــر التوسع والانتشار والتعاظم ، لأن القوة الحقيقية التي تضمن الاستمرار والصمود ، واعطاء الصورة الواضحة والنموذج المتكامل هو في هذه القاعدة .

ومن أولى صفات هذه القاعدة أن تتميز باسلامها وايمانهـــا ووعيها ، وأن تتهيأ بالاعداد والدراسة والعمل لمواجهة أقسى ظروف المحن من التسفيه والايـــذاء والتجويع والقتل والنفي واهدار الدم ، في أقسى الظروف الحياتية الصعبة .

فإذا لم يكن مثل هذا الإعداد، ولم تكن عند هذه القاعدة درجة كافية من الورع والوعي ، والتقوى واليقين ، والثبات الصلابة ، والخلوص والتجرد ، والاصرار والتميز ، والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل وقـــلة العدد وانعدام النصير الأرضي ، إذا لم يكن ذلك الاعـــداد ، فلن تستطيع هذه الفئة أن تقيم مجتمعـاً اسلامياً يستطيع الوقوف

---

١ ـ أنظر الظلال ج ١٠ ص ٨٨ وما بعدها .

أمام السيول الجارفة للجاهلية المسلحة الماكرة .

« إنه ابتداءً، يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص ، الذين تطهرهم المحنة ، فيثبتون عليهـــا ، والعناية بتربيتهم تربية ايمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً ، ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنـــان الى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة ، فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه النـــاحية ، ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجمـــاعة الأولى [1] .

وإغفال هذه المهمة الضرورية يجعل من التوسع عبثـــاً قاتلاً للجماعة المسلمة ومهدماً للمجتمع الاسلامي .

٣ ــ إن هذا يبين لنا علاقة العدد بطبيعة التكوين، وطبيعة النشأة ، والعلاقة بين الغاية والوسيلة .

فالغاية السامية للدعوة التي تقود الانسانية وتسمو بالانسان وتحقق كرامة الانسان وتحرره من العبودية لغير الله سبحـــانه وتعالى، إن هذه الغـــاية لا تتحقق بغير حملة أمنـــاء ، ألفاء

متميزون ، يعدون حسب منهج الله سبحانه بدقة وعمق، بعيداً عن أية تشويهات أو أخطاء أو نقص في الاعـــداد ، أو مسخ لصورة المسلم الحقيقي الذي سيكون لبنة وأساساً في البنـــاء سيكون له أسوأ الأثر على مستقبل الدعوة ، بحيث قد يحول دون تحقيق غايتها والوصول الى هدفها ، أو يعوق نجاحهـا ، ويؤخر ظهورها الى عالم الواقع .

والمسلم الحقيقي المهيأ لهذه الغاية ينبغي أن لا يكون للجاهلية أثر في بنائه الفكري أو الشعوري أو السلوكي ، وفي كل المظاهر الحياتية ، وصيغ التعامل والارتباط والتحرك ضمن المجتمـع . لأن أي تداخل بين الجاهلية والإسلام في كيانه سيجعـل منه رجلاً مسخاً مشوهاً، تكمن جراثيم الغي في داخـــله وتستفحل بعد حين لتخلق أمراضاً وانحرافات لا تنتهي إلا بالموت .

ومن واجبات المسلم أن يتخذ من الوسائل المناسبة ، وينتهز الفرص المناسبة والظروف المحيطة بوعي وتبصر وحكمة، ليكون أهلاً لحمل هذه الأمانة ومواجهة الواقع .

إن من مميزات المسلم قدرته على استيعاب الظروف والأحوال ، واستخلاص النتائج والعبر ، والاستفادة من التجارب التي يمر بها في حياته .

ولكن اتخاذ الوسائل المناسبة ، واستغلال الظروف المحيطة

لا يعني استباحة أية وسيلة في سبيل الهدف ، فللإسلام غاياته السامية ، ووسائله المكافئة لهذه الغايات وإنما نريد أن يستفيد المسلم من معطيات واقعه وظروفه ومجتمعه وعصره ضمن الإطار الإسلامي الواضح ، والتميز الخالص وبما يلائم الغاية ويحققها .

فإذا كانت الغاية بهذه الأهمية والسمو والبعد والصعوبة، فكم يكون مهماً أن يكون لها رجال أمناء قادرون ، متميزون بصدق الإيمان ، وحسن الإسلام ، وشدة التقوى ، وكثرة الورع ، وسلامة الحس ، ونقاء التميز، وسعة الفكر ، والمقدرة على استيعاب الأمور ومعالجة الطوارىء ، ومواجهة المحن .

رسول الله – ﷺ كان قدوة لنا في هذا كله ، حيث كان في حياته وكل شؤونه المثل الكامل، والقدوة الرائعة وحسبناأن ندرس سيرته دراسة تطبيق وسلوك ، لا دراسة استمتاع ولذة فكرية أو شعورية .

والصحابة – المهاجرون والانصار – كانوا قدوة لنا في ذلك كله أيضاً ، وحسبنا في بحثنا هذا أن نرى صورة الخليفة بإيمانه وصدقه وتقواه وقوته وسعة إدراكه ، وإشراق فكره وثباته وجرأته في الحق ، وبمواقفه الصلبة لإظهار وجه الحق .

وحسبنا أن نرى صورة المجتمع المسلم كيف تحرك مع الصديق قوة إيمانية مبصرة، لم تقبل المساومة على حق من حقوق

الله يوم تعرضت للفناء ، وواجهت الفتنة بهذا اليقين وهـذه الصلابة .

وجدير بنا أن نتوقف عنـد كثير من مواقف رسول الله - ﷺ - ومواقف الصحابة لنرى صورة الدعوة في حركتها وبنائها ومواجهتها للمحن ، وحرصها على تميزهـا ووضوحها وخلوصها من كل شائبة (١) .

وهذا يدل على أنه لا قيمـة للعدد إلى جانب الإعداد ، وينبغي أن لا تضللنا الكثرة فننسى مهمة الإعـداد النوعي ، والتربية الواعية .

٤ - إن دراسة التطور التاريخي للدعوة تظهر أن التوسع في البلاد وبين الناس لم يبدأ إلا بعد أن اكتمل نمو الجوانب المختلفة للمجتمع الإسلامي ، والدعاة المسلمين في مجتمـع المدنية ، حتى استطاع هذا المجتمع العقيدي أن يتحمل مسؤولية الدعوة ويثبت للمحن والفتن والمفاجآت والانحرافات .

وكان رسول الله - ﷺ - كقائد لهـذه الدعوة ، يواصل

---

١ - أنظر ما دار بين وفد ثقيف وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما أراد الوفد أن يشترط شروطاً لا تتوافق مع الإسلام ، فرفضها عليه السلام ، ولم يقبل مبايعتهم إلا على الإسلام الواضح الخالص لله سبحانه وتعالى ، وانظر إلى موقفه من عدم رده على تحية الجاهلية .

– طيلة حياته – تربية المؤمنين واعدادهم ، وتوضيح أبعـاد التصور الجديد بالفكرة والسلوك معاً ، بالتجربة والمحن ، والله يكلؤ هذه الرعاية حتى إذا اكتمل نموها ، وتم بناؤها ذهب الى ربه راضياً مرضياً وهو مطمئن أن كتـاب الله وسنة رسوله تحولت الى رجال مؤمنين وقاعدة صلبة أمينة ، وبناء راسخ ، يتحركون ويجاهدون ويدعون دون أن تستطيع المحن والفتن والتشويهات أن تخترق هـذا الحصن المنيع أو تضلل الرؤية الواضحة لهم .

وفي العامين الأخيرين من حياته ، أرسل الوفود والدعـاة لتبليغ دعوة الله عز وجل ، وفي هـذا هدي من رسول الله لمعرفة الأولويات في مرحلة بنـاء المجتمع الاسلامي ، ووضع الغايات التي يسعى اليها الدعاة الى الله عز وجل .

٥ – وعندما قدمت الوفود ، رأينا أنها تمثل صفوة الناس في قبائلها ، وكان إسلامها نيابة عن أقوامها . ولكن هذا لا يجعل من هذه القبائل مسلمة لله مؤمنة طائعة ، ولا يعني دخولها في المجتمع الاسلامي بصورة واضحة .

وعادت الوفود الى قبائلها، ثم تولت تبليغ ما عاهدت عليه رسول الله – ﷺ – فأي شيء كانت تبلغ ؟

إذا تذكرنا أن هذه الوفود لم تكن تمكث في المدينة إلا أياماً

لا تزيد عن الثلاث ، فهل هذه الايام كافية لتفهم حقيقة الاسلام؟

أين التطبيق العملي الصعب لما آمنت به ؟

أين المحن التي تكشف عن جوهر الايمان وحقيقته ؟

الحقيقة أن هذه الوفود حين أعلنت اسلامها ، كان بعض رجالها قد فتح قلبه وفكره لهذا الدين ، وسعى لفهم الاسلام وحرص على سؤال رسول الله – ﷺ – والصحابة عن أمور شتى كان يجهلها كما فعل عثمان بن أبي العاص – وهو من ثقيف ، إذ كان قومه يكثرون الجدال قبل أن يسلموا ، وكان أحدثهم سناً وأحرصهم على التفقه في الاسلام وتعلم القرآن ، وقد أوكلوا إليه حراسة رحال ثقيف ، فكان كلما عاد القوم الى رحالهم بالهاجرة ليقيلوا ، ذهب عثمان الى رسول الله – ﷺ – وسأله عن الدين ، واستقرأه القرآن حتى فقه في الدين وعلم ، وكان إذا وجد رسول الله – ﷺ – نائماً عمد الى أبي بكر يسأله ، وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب به رسول الله – ﷺ – وأحبه ثم أختاره ليكون أميراً على قومه بعد اسلامهم .

ولكن مثل هذا الرجل لم يكن كل الوفد ، بل كان عدد من أعضاء الوفود بين المرتدين ، أو على رأسهم بعد وفاة رسول الله – ﷺ – .

ولا ننسى أن مسيلمة كان مع وفد قومه ظناً منه أنه سينال ما يطمع إليه من اقتسام أمر العرب بينه وبين رسول الله - ﷺ - وهو الكاذب اللعين . والنتيجة أن قدوم الوفود لا يعني دخول القبائل الى الاسلام عن قناعة ويقين وصدق .

وكان رسول الله - ﷺ - يعلم ذلك ، لهذا كان يرسل وفود الصحابة والمعلمين والدعاة الى هذه القبائل ، لايضاح التصور الاسلامي ، وشرح أمور العقيدة ، وتبيان معنى الاسلام ونقل الاسلام اللفظي الى صورته التطبيقية العملية . ولكن الفترة وجيزة لا تكفي لاعداد هذه الجموع الكثيرة التي أعلنت اسلامها .

فهل الإسلام هذه المظاهر من الشعائر والشعارات ؟

هكذا كان أبناء القبائل والأعراب يظنون ! ولم يفهموا معنى العقيدة ، ولم يتحول لديهم الإسلام إلى تطبيق وسلوك ومنهج حياة - وهذا هو المعنى الحقيقي للإيمان الصحيح وتلك هي الصورة الصادقة للإسلام - .

أما الاقتصار على المظاهر - كبعض الشعائر والشعارات - وترك التقيد الكامل بالمنهج في كل شؤون الحياة والسلوك فهو المسخ والتشويه والمحاربة الخطيرة للدين والعقيدة والمنهج ذاته ، والخلط المقيت بين الجاهلية والإسلام .

ألم تؤد هذه الصورة إلى الارتداد وإيثـــار كل شهوة على الإيمان ؟

ألم يتحول هذا التشويه والخلط إلى فتنة مهلكة ؟

٦ – كان رسول الله – ﷺ – يأمر بعض الوفود بقتـــال المشركين حولهم ، وفي هذا توجيه منه – ﷺ – لهذه الوفود لتعميق إيمانها ، واستكمال فهمها للإسلام ولتتمكن من حمـــل الدعوة ، وقتال المشركين .

والأمر يوحي للوفود أنها منذ إسلامهـا أضحت في المعسكر الإسلامي – في سلمهـــا وحربها – وأن المشركين – قربوا أم بعدوا – أضحوا بعيدين عنهم ، تفصل بينهم العقيدة ، ويميزهم عنهم الإيمان والإسلام .

وحين يرون أنفسهم في مواجهـــة المشركين من جيرانهم – وقد يكونون أقرباء أو أصدقاء – يعلمون أن أمر الإسلام جد ، وأنه يعني التميز ، ويفرض حياة معينة وسلوكاً معيناً ، وأنه منهج متميز في الحياة .

إن ذلك سيثير في أذهانهم – على الأقل – التفكير في أمر الدين ومحاولة استيعابه ، وتوضيح شريعته ، لأنه وضع الحـد الفاصل بين الجاهلية والاسلام .

وهذا الأمر امتحان لاسلامهم – أيضاً – وابتلاء يزيد في جلائه وتعمقه عندهم ، وهنا يتبين صدق الصادقين ويكشف عن وهن المهزومين ، أو تردد الطامعين ، أو خبث المشركين والمنافقين المتسترين .

فالذين سيحملون العقيدة سوف يسارعون لتبليغها ومجاهدة المشركين حولهـم ، والذين سلمت فطرهم سيسلكون السبيل لفهم الإسلام للنهوض بتبعاته وواجباتهم لمرضاة الله عز وجـل فالردة أظهرت الفارق الكبير بين الإسلام الحقيقي ، والإسلام الظاهري ، أو إسلام الشعارات والمظاهر . فزادت من نصاعة الإسلام ، وإيضاح معنـاه الحقيقي ، وصورته الربانية ، وتميزه الواضح .

وأظهرت – أيضـاً – خطورة التنازل عن أي شيء من الإسلام ، بل كانت دليلاً قاطعاً على أن إهمـال بعض أموره أو التقصير فيه ، ومهادنة الطامعين أو الضعفـاء في إيمانهم ، الذين تستهويهم المطامع والدنيا ، يعني فقدان الإيمان ، وخرق المجتمع الإسلامي .

إن مثل هذا التنازل أو المهادنة يعني في جانب من جوانبها التنازل عن رد الحاكمية لله ، وإفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ، وهذا شرك بالله .

فالصديق – رضي الله عنه – والمسلمون معه قاموا يحاربون

مانعي الزكاة ، والذين رفضوا التسليم والطاعـة لأدنى أمر من أمور الإسلام ، لإقرار الوهية الله سبحانه والقيـــام بمقتضيات العبودية لله والإيمان به وحده . وكان جوابه لمن صعب عليـــه رؤية أناس يصلون ويصومون ، ويشهدون بالله ورسوله يحاربون لأنهم منعوا الزكاة ، قال لهم : بعد أن سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه — :

علام تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله — ﷺ — : أمرت أن أقاتل النـــاس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها!

فقال أبو بكر : والله لو منعوني عناقاً « وفي روايه عقالاً » كانوا يؤدونه الى رسول الله — ﷺ — لأقاتلنهم على منعها إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١) .

إنه مقياس حساس ، فطرة سليمة لا تشوبها شائبة ، تتأثر بأصغر انحراف ، لهذا اطمأن المسلمون لموقف أبي بكر، وعرفوا الحق . وكان هـــذا الوعي من أبي بكر فيض من رضوان الله

---

١ ـ البداية ٦ ـ ٣١١ .

ونعمائه ، حتى يعلم المسلمون أن منهج الله متكامل ، والايمان تسليم كامل وطاعة تامة ، وأن ترك شيء منه أو استبدال بعضه أو ابتداع غيره يعني الخروج من دائرة الايمان .

٨ - وكانت الردة والمسلمون محزونون لوفاة رسول الله ﷺ - تنبيهاً وايقاظاً لهم حتى لا يغرقوا في الأحزان والمشاعر مهما كانت صادقة . فمحبة الله ورسوله تكون أصدق ما تكون في طاعته والحفاظ على شريعته والتزام منهجه والجهاد في سبيله .

هـذا اجتمع المسلمون - كلهم - وراء الخليفة طائعين ، لم يشذ منهم شاذ ، مخلصين في ذلك ، صفاً مؤمناً متراصاً كما أرادهم الله سبحانه « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص » (٤ الجمعة) وهكذا كانوا .

وما أروع الصف الاسلامي الواحد ، رغم ما أرجف به المنافقون وادعى المدعون من خلاف .

وكانوا وراء الخليفة الذي تميز بهذا الايمان ، وهذا الوعي وهذا الالتزام ، وهذه الحساسية الصادقة ، وهذا التميز . كانوا وراء الخليفة صفاً ، طاعة لأمر الله ، وطمعاً في مرضاته لكي يحفظوا شرع الله ناصعاً كاملاً غير ناقص ، وليدفعوا عن منهج الله الخطر والتشويه ، ولهذا قال لهم أبو بكر في خطبته عقب الردة :

« إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم [1] ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا ، على ما قد تقدم من بركة نبيكم - ﷺ - وقد وكلكم الى المولى الكافي الذي وجده ضالاً فهداه ، وعائلاً فأغناه » [2] .

وجاء في خبر خروج المسلمين الى ذي القصة ، ليعقد الخليفة الألوية ، ويسيّر الجيوش أن أبا بكر - رضي الله عنه - ركب في الجيوش الاسلامية شاهراً سيفه مسلولاً من المدينة الى ذي القصة ، وهي من المدينة على مرحلة ، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصديق - رضي الله عنهما - .

فالردة أظهرت قيمة الايمان ، ونبهت المسلمين الى واجباتهم ووضعت لهم سلماً للأمنيات والغايات لا يخطئها مؤمن صادق ، وجعلتهم يوقنون أن أمر العقيدة فوق كل أمر وأن أي شأن من شؤون الحياة يتضاءل أمام مهمة الحفاظ على تميز العقيدة، وكمالها، وتحقيق معنى العبودية الكاملة لله، وفي هذا وحده يكون الحفاظ على كيان الجماعة الاسلامية والمجتمع الاسلامي .

وأي تفريط في ذلك يعني التنازل والهزيمة . والوقوع في

---

١ - أي منعوا الزكاة .

٢ - البداية ٦ - ٣١٢ .

التشويه والنفاق ونقض البيعة لله سبحانه وتعالى .

٩ - والردة كانت امتحاناً لمن تولى أمر المسلمين بعد رسول الله - ﷺ - وكان هذا الامتحان موضحاً مستويات المؤهلات والصفات والمزايا التي برزت عند الخليفة وفي شؤون عديدة وأهمها :

أ - كانت الفتنة موضحة لمدى فهم الخليفة للاسلام - كمنهج متكامل - ولمعنى العبودية لله سبحانه وتعالى ، وقد برز هذا الفهم واقعياً عملياً لمن يتولى شؤون الناس ، وبرزت صورة الايمان الصادق الواعي .

وكان أبو بكر واضحاً في تصوره لمنهج الاسلام بتكامله وشموله ودلّ على وضوح التصور هذا موقفه من الفتنة ، وسلوكه بشأنها ، مما أدى الى وقوف المجتمع الاسلامي صفاً متراصاً وراء الخليفة دفاعاً عن الحق ، وإقراراً لوحدانية الله ومنهجه في الأرض ، وتقويماً لانحراف المرتدين الذين انتقضوا حق الله ، وشوهوا مفهوم العبودية المطلقة لله عز وجل عندما أنكروا احدى شعائر الاسلام .

ب- وكانت الفتنة امتحاناً للخليفة بمدى قدرته في المحافظة على الاسلام ، متميزاً ونظيفاً ، متكاملاً ، واضحاً لا يقبل المساومات، ولا يخشى مواجهة الصعاب والتضحية في سبيل هذا

التميز ، لهذا قال للمسلمين وهم يتهيأون لقتال المرتدين ومانعي زكاة « والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجـــز الله وعده ، ويوفي لنا عهده ، ويقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة ، ويبقى من بقي منا خليفته وذريته في أرضه ، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) [1] .

فهل هناك أكثر من هذا التميز والوضوح في الايمان والوعي؟

ألم يقف في بداية الأمر وحده يأبى إلا مقاتلة مانعي الزكاة، يرفض مفاوضتهم حول أي أمر من أمور الردة ، أو يهاونهم في شأن من شؤون الاسلام .

ولم يكن الصديق في هذا الموقف إلا المؤمن المتميز ، الذي علن المفاصلة بينه وبين الجاهلية ، وابتغى مرضاة الله عز وجل وحده .

إن الله سبحانه وتعـــالى صاحب الأمر من قبل ومن بعد ، والمسلم لا يتطلع الا الى مرضاة الله عز وجل ، وهو يهيء نفسه لأصعب حالات الجهاد والدعوة ، ولكنه غير معذور في أن يساوم في أمر دينه ، أو يفرط في جانب منه ، أو يرضى بأي

---

١ ـ البدايه ٦ ـ ٣١٢ .

مساس فيه ينزع عنه صفة الوضوح والتميز والتكامل والمفاصلة بينه وبين الجاهلية .

ج – وكانت الردة امتحاناً لصلابة القائد . وقوة عزيمته فالصديق الذي يرق قلبه ويخشع فيبكي وهو يقرأ القرآن ، هذا الضعيف النحيف الأخبأ (المنحني) الذي لا يستمسك إزاره لضآلة جسمه فيسترخي عن حقويه (خاصرتيه) ذو الوجه المعروق [1] .

هذا الرجل كان أصلب الناس في الحق ، قوياً شجاعاً يرفض أن يبقى في المدينة والناس يخرجون للقتال ، ويرفض أن يستبقي جيش أسامة والردة تنتشر ويقوم للأمر بحزم ، ويشد بلحية الفاروق القوي حتى يشرح الله صدر المؤمنين لما رأوا ما شرح الله اليه صدر الصديق ، وضرب في ذلك المثل والقدوة للقائد الداعية في قوة إرادته ، وشدة حزمه ، وصلابة موقفه ، بعد أن يستيقن الهدى في الرأي ، والحق في الموقف .

د – والفتنة أوضحت عظم المسؤولية ، وعبء القيادة وحساسية المواقف التي يواجهها القائد المسلم وهو يقود سفينة الدعوة والمجتمع والدولة .

---

١ ـ أنظر كتاب (ابو بكر الصديق) لعلي الطنطاوي ص ٣٧ .

إن هذه المسؤولية تقتضي أن يكون لهـذا الأمر أهله ممن تتوفر فيهم الصفات الضرورية لهذه المهمـــة والذين ثبتوا في المحنة ، وامتازوا بالوضوح ، والوعي والتقى والورع، والصلابة في الحق ، والجرأة في المواقف وسلامة الحس الاسلامي ، وقوة المحاكمة .

وكم تكون فداحـة المصيبة حين يتولى أمر المسلمين من هو ضعيف في إيمانه ، خوار في مواقفـه ، أو غامض في آرائه ، غير واضح في تصوره ، ولا حريص على تميزه ، لا يملك الوعي أو التقوى أو بقية الصفات التي تؤهله الى ذلك ، ولا سيما إذا كان المجتمع الاسلامي في مرحلة تشتد من حوله الفتن كما واجهت الصديق .

إن المسلمين – كافة – مسؤولون عن اختيـار الرجل الأمين القـــادر على هذه المسؤولية ، قبل أن يسأل هذا الرجل عن مسؤوليته في قيادة المجتمع المسلم .

وكم كان المسلمون صادقين في رأيهم ، موفقين في اجتهادهم عندما اختاروا الصديق رضي الله عنـــه ، وأجمعوا على مبايعته ؟.

لقد اعطانا صورة عن القائد المسلم الذي يتولى أمر المسلمين، وكشف عن جلال التبعة والأمانة التي يحملها أمام الله، ولا سيما

في الحفاظ على الاسلام منهجاً متكاملاً ، ومجتمعاً مؤمناً متراصاً ودعوة متميزة ناصعة ، وديناً ربانياً لا يداخله غبش من الجاهلية .

٤ – منزلقات الردة

إذا بحثنا عن مبررات المرتدين ، وحججهم في اتخاذ هذا الموقف الشائن بحق الاسلام حين شقوا عصا الطاعة ، والمبررات التي احتج بها مانعوا الزكاة حين عصوا الله في ذلك ، وأنكروا حق الله في أموالهم . (نرى أشياء غريبة عن الإسلام)

فمانعوا الزكاة أرادوا أن يحرفوا كلم الله عن مواضعه ، ويدخلوا في الاسلام ما ليس فيه ، ويلتمسوا من السبل والمبررات ما يسمح لهم بالمعصية ، ويبيح لهم الامتناع عن أداء الزكاة .

لقد قالوا : إن الله سبحانه وتعالى يقول « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم » ولسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا .

ولعمري فإن هذا التحريف في ألفاظ النص وطريقة فهمها شبيه بما نراه اليوم عند كثير من المنحرفين الذين يبحثون عن حجة واهية ، ويلتمسون سبيلاً لانحرافاتهم ، فإذا افتقدوا ذلك

شوهوا ، وحرفوا وكذبوا لخداع النـاس ، وإشاعة الفساد ، وخرق منهج الله .

وواضح من هذا أن المرتدين ، كانوا ينكرون فرضية الزكاة ويرونها ضريبة وعبثـــاً ، ولو ارتبطت في أذهانهم بمفهوم العبادة لله ، وتوحيده سبحانه لما جرأ واحـــد منهم على هذا التحريف .

وهم في ذلك يشيرون الى نقص في الايمـــان ، وغبش في فهمهم للاسلام ، حيث كانوا – في موقفهم ، يجردون الله عن بعض صفاته : الحاكمية ، والعلم ، والقدرة ، والهيمنة ، والرزق والانعام ، فكانت رؤيتهم أن المال لا علاقة لله به ، فهم يبحثون عن المال ، يبذلون من أجله كرامتهم ، ويعلونه كقيمة مقدسة حتى يغدو إلهاً ، يقضي الحاجات ، ويفرج الكربات ، ويصنع المعجزات .

وحين دفعوا الزكاة – يوم دفعوها – رأوها ضريبة فرضت عليهم ، بعد انهيار مقاومة قريش ، فلما مات نبي الله – ﷺ – امتنعوا عن دفعها ظنـــاً منهم أن أمر الاسلام الى زوال ، وأن هذه الدعوة ملك لا يلبث أن يحل محله آخر بعـد وفاة زعيمه .

وكأنهم رأوا برسول الله زعيمـــاً قوي الشكيمة ، نافذ

الكلمة مرهوب الجانب ، فبسط سيطرته على هذه القبائل ، فلما توفاه الله سبحانه وتعالى ، زال الخوف من أتباعه ، وتطلعت النفوس المريضة الى التألب والردة والانقضاض .

إن مانعي الزكاة لم يفهموا حينها معنى الايمان أولاً ، وبالتالي جهلوا معنى التزكية للنفس والمال معاً بدفع الزكاة ، ولم يربطوا بين الايمان وتطبيق منهج الله في اخراج حق الله من المال . بل ظنوا أن الزكاة ضريبة دفعت لمحمد كما كانوا يدفعون الاتاوات لزعمائهم في القبائل .

ألم يكن الامتناع عن دفعها – إذن – نقضاً لمعنى الايمان بالله والدخول في جماعة المسلمين ؟

ألم يكن رفض أدائها انكاراً لمعنى العبودية التي تشمل أول ما تشمل هذه الحقوق المفروضة والشعائر التعبدية ، والالتزامات الفردية التي تدل على ايمان المسلم ؟

وهكذا فهم المسلمون الصادقون – مع أبي بكر – أمر الزكاة وغيرها ، ورأوا في تخلف الأعراب عن دفعها منعاً لحق الله ، ونقضاً للبيعة ، وانكاراً للفرض ، وخروجاً عن الايمان والاسلام معاً .

لذا حاربهم الصديق كما حارب المرتدين ، حتى عادوا الى

طاعة الله ، وأيقنوا أن أمر الزكاة كأمر الصلاة ، كأي أمر من أوامر الله ، ضمن منهج متكامل لا يصح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، ولا يجوز أن نلصق به رقعاً جاهلية أو نسلخ عنه أجزاء معينة مهما كانت الاسباب والمبررات لأن الايمان قائم على التسليم بألوهية الله سبحانه وتعالى بكل صفاته ، وبالتالي صياغة الحياة وفقاً لمنهجه الكريم .

ونرى في تصرفات المرتدين ما يدل على تشبثهم بالجاهلية ، أو صدورهم عن تقاليدها وتصورها .

والجاهلية ليست عادات وتقاليد فقط ، وإنما هي تصور عقيدة تتحكم بأبنائها أيضاً فالجاهلي ينطلق في حياته من تأليه شيء من دون الله ، أو إشراك مع الله ، فهو يعطي زعيم القبيلة أو عدداً من أبنائها حق التشريع والحاكمية وبذلك يخرج عن معنى الإيمان بالله ، وينضوي تحت لواء الجاهلية .

ويستتبع التفكير الجاهلي – في الجزيرة العربية – هذا الولاء الأعمى للقبيلة ، والتعصب الذميم للعشيرة ، والتناصر الطائش في مواطن العدل أو الظلم ، والإجحاف بحق الآخرين .

ولنستمع إلى هذا الحوار الذي جرى بين واحد من بني حنيفة وبين مسيلمة الكذاب .

عن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال :

أين مسيلمة ؟ فقال : مه ! رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فقال : نعم .

فلما جاء قال : أنت مسيلمة ؟ فقال : نعم ، قال : ما يأتيك ؟ قال : رجس ، قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ قال : في ظلمة . فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

ثم اتبعه هذا الأعرابي الجلف ، حتى قتل معه يوم عقربا . وهذه الحادثة وغيرها تدل على طبيعة الدوافع الجاهلية التي كانت وراء الردة .

وإذا علمنا أن بعض الوفود أتت وفيها رجال يضمرون الشر والغدر لرسول الله – ﷺ – ندرك أثر الجاهلية أيضاً .

جاء في الطبري برواية ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال [1] : قدم على رسول الله – ﷺ – وفد بني عامر ، فيهم عامر بن الطفيل وأربَدُ بن قيس بن مالك ابن جعفر ، وجبار بن سلمى بن جعفر ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤوس

---

١ ـ انظر الجزء ٣ ص ١٣٥ .

القوم ، وشياطينهم فقدم عامر بن الطفيل على رسول الله وهو يريد الغدر به وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ ثم قال لاربد : إذا قدمت على الرجل فإني لشاغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك ، فاعله بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله - ﷺ - قال عامر بن الطفيل : يا محمد خالني ، قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده قال : يا محمد خالني ، وجعل يكلمه ينتظر من اربد ما كان أمره به (ليضرب رسول الله) فجعل اربد لا يحير شيئاً، فلما رأى عامر ما يصنع اربد ، قال يا محمد خالني ، قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده ، لا شريك له فلما أبى عليه رسول الله - ﷺ - قال: أما والله لاملأنها عليك خيلاً حُمْراً ورجالاً .

فلما ولى قال رسول الله - ﷺ - اللهم اكفني شر عامر بن الطفيل ، فلما خرجوا من عند رسول الله - ﷺ - قال عامر لاربد : ويلك يا اربد ! أين ما كنت أوصيتك به ، والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف على نفسي عندي منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً ، قال : لا تعجل علي ، لا أبا لك والله ما هممت بالذي أمرتني به من مرة ، إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما ارى غيرك ، أفأضربك بالسيف، ثم مات عامر

ابن الطفيل بالطاعون .

أليس وراء دوافع الوفد الحقد والضغينة وحب الزعامة ؟ ألم تكن الجاهلية هي التي تدفع عامر وصحبه إلى هذا التفكير والسلوك ؟

لقد رأوا الناس يدخلون في دين الله ، وخافوا أن تفوتهم حظوظ من الدنيا ، فقدموا حاقدين ، وأضمروا الغدر ، ناسين أن الله سميع بصير ، فحفظ الله نبيه وأهلك أعداء دينه .

هل ستكون وفادة الوفود كفيلة بدخول الناس في الاسلام ؟

لا ، فالإسلام أعمق وأشمل وأكثر أثراً ، ولهذا كان رسول الله – ﷺ – يرسل الصحابة إلى القبائل ليعلموهم الإسلام ، ويخرجوا الجاهلية من نفوسهم .

وكذلك كتب الكتب يشرح لهم أمور دينهم ويبين واجباتهم وما فرض عليهم .

ولكن هذه الغاية لم تكتمل قبل وفاته – ﷺ – بل كانت هذه القبائل – التي ارتدت – ما تزال تدين بمشاعرها وحكمها وعاداتها ، وحبها وكرهها – لدين الجاهلية ، مع نطقها بالشهادتين .

لقد جهلت معنى أن تشهد بالله إلهـا لا شريك له وبمحمد رسولاً من الله عز وجل للناس كافة .

لهذا لم يحاولوا صياغة حياتهم حسب ما يقتضيه الإيمان ، والشهادة بالله ورسوله .

فأي قيمة للاسلام ، إذا كان ألفاظـاً وشعارات أو شعائر وعادات ، تتناول حالات معينة من حياة الإنسان ؟

إنه الانفصام النكد بين عالم الفكر وعالم السلوك حين يغدو الدخول في الإسلام مجرد النطق بالشهادتين ، أو قيامهم ببعض الفرائض .

وكم هي صورة بائسة لجموع الناس الذين يقفون في هـذه المنعرجات والدهاليز المظلمة من منعرجات الجاهلية ومناهجهـا وعاداتها وتصوراتهـا وهم يظنون أنهم مسلمون ! ألسنا نظلم أنفسنا ، ونظلم الإسلام حين نجهر مدّعين باسمه ونحن منغمسون في الجاهلية ، في مجال التصور أو مجال السلوك ؟

لقد كان إسلام القبائل إسلاماً سياسياً – إذا صح التعبير – وظنت أنها ستجني من الإسلام كسباً مادياً أو تدفع عن نفسها خطراً قادماً ، ولم تفكر في أول الأمر في أمر هـذا المنهج الجديد .

وكان لا بد من محنة لتقويم التصور، وتصحيح المسار وتنبيه الفكر والمشاعر إلى معنى الدخـــول في الإسلام وكانت الردة هذه المحنة .

دفع من أجلها المسلمون ثمناً غالياً ؛ من الدمـــاء والضحايا ولكنهم فازوا في النهاية .

فازوا حين ظفروا بالشهادة ومرضاة الله .

وفازوا لأنهم أعادوا المرتدين إلى منهج الله .

وفازوا لأنهم أعادوا بناء المجتمع على أسس راسخة من منهج الله يقوم على الادراك والتطبيق والإيمان الصحيح .

٥ ـ آثار الظاهرة في المجتمع الاسلامي [١]

إن كل مجتمع من المجتمعـــات لا يمكن أن يثبت ويستمر في الحياة ما لم يستطع تجاوز المحن التي يمر بهـــا ، ويفوز بالتجارب القاسية التي تعترضه .

---

١ ـ نشر هذا الموضوع بعنوان (ظاهر الردة في المجتمع الاسلامي) بمجلة حضارة الاسلام .

وما دامت المجتمعات الإنسانية لا تستطيع أن تبرهن على صلابتها وقوتها أمام الأحداث الجسيمة، ولا تتمكن أن تصبر أمام المحن فإنها في الوقت ذاته لا تستحق الحياة .

فالمحن والأحداث والنكبات العظام، والمفاجآت المروعة هي محك صحيح لصلابة المجتمع، وسلامة بنائه، وصحة الطريق، وصلاحيته للحياة .

أما المجتمعات الضعيفة فإنها لا تلبث في مجال التجربة سوى ساعات، بل تنكشف كل عوراتها وضعفها، وينفرط عقدها، وتنهار معنوياتها وتتفرق قواها، وتعجز عن التجمع والصمود مرة أخرى .

وظاهرة الردة علامة دالة ومميزة في تاريخ الإسلام، ونشأة المجتمع الإسلامي . وهي ظاهرة اجتماعية، برزت في مسيرة المجتمع التاريخية، ثم أعطت صورة عن هذا المجتمع .

وحين نتفحصها، بأحداثها ومقوماتها ونتائجها، والعوامل الداخلية التي ساهمت في تكوينها نرى أنها ظاهرة خطيرة إذا عجز المجتمع عن احتوائها، أو لم يكن قادراً على مواجهتها .

فهل كان المجتمع الإسلامي كذلك ؟

لقد رأينا من الدراسة الماضية أن المجتمع الإسلامي ضم عدداً

من المستويات الايمانية المتفاوتة ونلخصها بما يلي :

١ – فهنــاك المؤمنون الأولون الذين تشربت قلوبهم معنى الإيمان ، وفهمت عقولهم حقيقـــة الإسلام ، وعاشوا بوقائعهم وأعصابهم في ظلال القرآن الكريم ، لذلك كانوا حملة العقيــدة وأبناءها البررة ، وظهروا كنماذج قرآنية حيـــة ، إنسانية ! بسلوكها وخلقها، وتصرفاتها وتفكيرها ، ومعاملاتها ومنازعها، وعباداتها وكل مظاهرها .

نماذج بشرية متزنة فريدة ، متكاملة الصفات ، وهــذه الفئة هي التي حملت الدعوة مع رسول الله – ﷺ – بعد إيمانهـا إلى الناس كافة وهي الفئة التي باعت نفسها لله، لقاء مرضاته وحده، متنازلة بطواعية عجيبة عن مالها ونسبها ووجاهتها، وكل ماتملك في دنياها ، ابتغاء لرضوان الله ، حين لم تكن بارقة أمل في نصر – في نظر النـــاس – أو بصيص نور في الطريق ، سوى تلك الثقة العظيمة بالله سبحانه وتعالى – التي حملها هؤلاء المؤمنون ، فكانت عندهم أقوى من كل الصعاب ، وأكثر إشعاعـــاً من نور الشمس في وضح النهار .

وهذه الفئة – أيضاً – هي التي كونت القاعـــدة الايمانية الصلبة التي مرت عبر سنواتها الطويلة الماضية ، بكل أنواع المحن الإنسانية ، بدءاً من محنة الاستهزاء والتسفيه ، وانتهاء بسفك الدم وإزهاق الروح ، وخرجت من هـــذه المحن أشد إيماناً ،

وأعمق يقيناً وأصلب عوداً، وأكثر فهماً لمعاني القرآن ومقتضيات الإيمان ، وأشد وعياً لأمانة الدعوة . لقد تميزت – هذه الفئة – بقوة الإيمان ، وصلابة العقيدة، وعمق الثقة واليقين بالله، وسلامة التفكير الإسلامي ، وتميز التصور والسلوك عن الجاهلية وصحة الخطى على الطريق ، وشدة الخوف من الله ، والجرأة في الحق، والحرص على مرضاة الله، والبعد عن كل مطمع دنيوي والشمول في نظرتها للأمور ، والنضج في التفكير والنظر. وهذه الصفات هي التي جعلتها مؤهلة لتحمل المسؤولية وأداء الأمانة والصبر عند المحن والمحافظة على صفاء العقيدة وتميزها رغم المكائد والمصائب .

٢ – الفئة الثانية : هي الفئة المنافقة التي ظهرت في المدينة بعد أن وجدت عامة أهل المدينة قد رضوا واثقين طائعين هذا الدين ، فاحتضنوه بحب وإيمان ، وحملوه بقوة ويقين ، ودافعوا عنه بجرأة وثبات .

لهذا فقد أسقطوا في يد الطامعين في زعامة يثرب أو المنتفعين من أوضاعها الجاهلية ، ومنازعاتها القبلية، كابن أبي ، واليهود .

وانضم إليهم أولئك الذين فوّت عليهم الإسلام فرصاً في الحياة الدنيا يستطيعون كسبها ، والذين ارتبطت مصالحهم بمصالح يهود المدينة فوسوسوا له بالكيد والشك والعناد ،

وحرضوه على النفاق ، ومدوا أيديهم له بالتآمر والدس والعداء الخفي للإسلام .

هذه الفئة إذن مريضة نفسياً ، واجتماعياً وفكرياً ، طامعة أو ضعيفة ، حاقدة أو شاذة ، كل هذه العوارض تآلفت والتقت لتشكل فئة مندسة في صفوف المسلمين ، خافت على نفسها إذا هي أظهرت حقيقتها أمام المسلمين – وهذا جانب من جوانب ضعفها وضعف شخصيتها – لذلك تظاهرت بالإسلام كذباً وزوراً ، واستبطنت الكفر والنفاق سراً ، وعملت من داخل هذا المجتمع الوليد لتخريبه وطعنه والكيد له على مختلف الجبهات ، وفي مختلف الظروف .

وهذه الفئة مهما كانت قليلة فهي خطرة لتسترها واختفاء أمرها ، وقدرتها على بث سمومها في كثير من الفرص المواتية ، ولأنها تقوم بدور العين والجاسوس في صفوف المسلمين لصالح اليهود والجاهلية .

٣ – الفئة الثالثة هي الفئة التي دخلت في الإسلام بعد انهيار المقاومة الجاهلية – لقريش – تماماً ، ودخلت مكة في دين الله ، وبايعت ثقيف أيضاً ، ولم يعد للقبائل الأخرى قدرة على الوقوف في وجه الدعوة الجديدة بعد فتح مكة ، فجاءت وفودها إلى المدينة مبايعة تدخل في دين الله أفواجاً ، ورأينا كيف تألفت

الوفود من الزعماء والوجهاء في هذه القبائل .

هذه الفئة إذن : كثرة من النـاس ، لم تتغير حياتهم ، ولم تنقلب أوضاعهم وتصوراتهم ، ولم تعركهم الحوادث والمحن ولم يعرفوا حقيقة هـذا الدين ، وطبيعة مبايعتهم لرسول الله - ﷺ -

بل ظلوا كما هم : زعماؤهم في الجاهلية هم زعماؤهم في الإسلام وولاؤهم القبلي بقي بعد الإسلام ، ومتابعتهم للتقاليد والعادات ، وصدورهم عن الجاهلية ظل كما هو .

لقد تغيرت عبادتهم من التوجه لصنم ، للتوجيـه إلى الله سبحانه وتعالى ، دون أن يتعمقوا أو يفهموا معنى هـذا التوجه .

ولدى مقارنة هذه الفئة ، بالفئـة المسلمة الأولى نرى الفارق الكبير بينهما .

الفرق بين إسلام أولئك وإسلام هؤلاء !

الفرق بين تشكل الايمان في نفوس أولئـك في قلب المحن ، وعدم فهم الإيمان عند هؤلاء !

الدواعي التي أدت إلى دخولهم في الإسلام !

الموازين التي حكمت كل منهما بعد الإسلام !

لقد كانت حياة المجتمع الإسلامي قائمة على الإيمان والأخوة وغدا الإسلام حياة يعيشها المسلم بكل دقائق حياته وظروفه بينما لم تعان الفئة الجديدة أي شيء في إسلامها ، ولم ينقلب أي شيء في حياتها .

زعماء خافوا على زعاماتهم وانفراط عقد القبيلة بين أيديهم وتصدع ولاء الناس لهم ، أو طمعوا في وراثة مجد أكبر وممارسة زعامة مزدوجة – دينية ودنيوية كما يقولون– فذهبوا يستبقون الحوادث قبل أن تسبقهم ، وأرادوا أن يستفيدوا من الظروف قبل أن تفوتهم الفرصة [١] .

وقبائل رأت منافسيها تبايع وتسلم فحسبت أن يكون ذلك وسيلة لكسب قوة جديدة تقهرها بعد حين .

وكذلك ، فإن هناك اندفاعاً عاطفياً دون وعي من هؤلاء الأعراب . الذين دفعتهم الحمية والحماسة حين رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

---

١ ـ هذا لا ينفي وجود رجال بايعوا واسلموا ، وصح إيمانهم وحافظوا على عهودهم من هذه الوفود .

وربمـا كانت هناك محبة للأخلاق والفضائل دعت بعضهم للدخول في الاسلام .

وهنـــاك من كانت له مواهب وامكانيات فردية تؤهلهم للمناصب والقيادات والزعامة – حين يكون الأمر في مضمار السبق الدنيوي – فأرادوا أن يركبوا ظهر الموجة لعلهم ينالون شيئاً من الربح العاجل ، لعلهم ينفذون الى الصفوف الاولى في وقت قريب .

وتعددت الأهواء والنوازع والظروف والنوايا عند هـذه الفئة ، وكانت خليطاً تطغى عليه البداوة الجـــافية والكثرة الجاهلية .

ولم تكن فترة اسلامهم – في عهد رسول الله – ﷺ – كافيــة لارسال الوفود الكثيرة ، والمعلمين من المسلمين المؤمنين المتفقهين الأتقياء . لتربية الكثرة تربية صحيحة واعدادهـــا للدخول الشامل في منهج الله .

لذلك بقيت سطحية في اسلامها ، ضحلة في ايمانها بسيطة في وعيها ، متظاهرة في ولائها .

وبعد ذلك كله ، لم يذق واحد من هذه الفئة قساوة المحنة ، ولا بعض الشيء في سبيل العقيدة ، ليمر في لحظات الامتحان

ويظهر اسلامه على حقيقته ، فبقيت عبئاً كبيراً على المجتمع الاسلامي ، وثغرة يسهل النفاذ منها الى هذا المجتمع للعبث والكيد والحرب .

* * *

وبعد وفاة رسول الله – ﷺ – ظهر الفارق شاسعاً بين الفئتين :

فالمؤمنون الصادقون ، نهضوا بأعباء الدعوة ، ونظموا صفوفهم وبايعوا الخليفة الأول خلال ساعات قليلة ، وسط مشاعر الحزن التي لن يبلغ مصاب آخر ما بلغته تلك .

أما الفئة الثانية من المسلمين ، وفئة المنافقين أيضاً فقد بدأتا بالتململ والظهور . ولعبت الأطماع دورها وظهرت النوازع الغريبة في الميدان ، وقام أصحاب النفوذ برفع رؤوسهم طالبين المنصب ، والغنيمة .

وهكذا فإن الايمان الضعيف المهلهل ، والاسلام المتشكك والتربية الناقصة ، والتصور الذي يلابسه الغبش كل ذلك بدت آثاره في هذه المحنة .

إن هذه النواقص في نفس المسلم لن تمسكه عن النزوع نحو

الشر ، وإن النفاق المستخفي ، سيدفع صاحبه للنقمة والظهور. وهكذا واجه المجتمع ببناته الأفذاذ المحنة .

وإذا كان الصديق – رضي الله عنه – على رأس هذه المرحلة وقام بأعظم دور يمكن أن يقوم به مسؤول تجاه مجتمعه ودولته وعقيدته ، فإننا لا نستطيع أن ننسى دور بقية المؤمنين حوله، وبناة المجتمع ودعامته القوية وحملة العقيدة وحماتها الحقيقيين .

وأبو بكر واحد من هــــذا المجتمع المؤمن الصلب ، وحين تحرك بعزيمته تلك، تحركت معه الفئة المؤمنة التي تدرك وتطيع وتنفذ وتحمل المسؤولية مهما عظمت تبعاتها . ومن خلال هذه الأحداث آل المجتمع آنذاك الى فريقين مختلفين :

١ – الفريق الأول هو ذلك الطراز المؤمن ، الذي غــــدا قرآنياً في التصور والسلوك والتفكير ، وتحول في عمله وخلقه وتصرفاته الى نماذج قرآنية تتحرك وتدعو الى الله ، وهـــذا الفريق هو الذي كوّن القـــاعدة الصلبة الواعيـــة للمجتمع الاسلامي .

٢– الفريق الثاني فهو النوع الذي انخرط في صفوف المسلمين حين انهارت قوة الكفر والجاهلية في مكة وانضم إليه المنافقون الذين أرادوا أن ينتهزوا الفرص المواتية للانقضاض على هــذا الدين وتميز هذا الفريق بما يلي :

١ – ضعف في الايمان ينعكس على الفكرة والسلوك .

٢ – ضعف في الوعي للتصور الاسلامي الصحيح .

٣ – يضم كثرة مختلطة، وتطغي عليها البداوة والجفاة الذين لم يستطيعوا التكيف مع الفكرة الجديدة بسرعة .

٤ – فقدان التجربة والامتحان التي تتمخض عن تخليص هذه الفئة من أدرانها وفرز الضعفاء منها .

٥ – اعطاء الولاء للزعامات الجاهلية والتصور الجاهلي .

٦ – وجود رجـــال يطمعون في احراز مكاسب جديدة لذواتهم أو لقبائلهم على حساب الاسلام بعد أن وجدته يكتسح كل ما وقف أمامه في الجزيرة العربية كلها ، بل زاد من طمعهم عندمـــا رأوا رجالاً لم يكن لهم ذكر قبل الاسلام – كبلال وصهيب وابن مسعود وأسامـــة وغيرهم – رضوان الله عليهم أصبحوا من أشهر الرجال بايمانهم وحسن اسلامهم .

لقد دفع هذا كثيراً ممن حجبتهم الزعامات عن الظهور وهم يطمعون في البروز ، للانخراط في المجتمع الجديد لعله يحظى بما يحلم به ، مـــا دام يمتلك الشجاعة الشخصية ، أو المؤهلات الأخرى التي تعينه على ذلك .

ولكن هؤلاء أخطأوا ، لأنهم لم يدركوا سر الأمر كله حين نسوا أثر الايمان الصادق ، ولم يعوا ما فعلته العقيدة بالرجال ، وما أثرت به على المجتمع كله .

* * *

وحين بدأت الردة، ظهرت حقيقة هذا الفريق من الرجال، وتكشفت حقيقة النوايا، ووقف المسلم أمام محنة لا خيار فيها .

كانت المحنة قد أتاحت للنوازع أن تظهر بعد أن ظلت مختفية في النفوس ، واستقرت موجة الكثرة الصافية من الضعف الايماني ، وغبش التصور ، والترقيع بين الجاهلية والاسلام الى الحرب .

ومن هذه الظاهرة نرى وجهين :

١ – الوجه الظاهري : وهو سلبي كريه الى النفس ، مؤلم جارح ، ويتمثل هذا الوجه في ارتداد كثير من المسلمين عن اسلامهم – في صورة من صوره – .

ويتمثل أيضاً في الخطر الذي واجه المجتمع الجديد ، حيث لم يمض على قيامه غير سنوات عشر في المدينة .

ويتمثل في تلك الانتكاسة التي لن تقتصر على المرتدين

والبُداة ، بل تتعدى ذلك الى ظهور أخطار خارجية تنتظر فرصة للانقضاض على العقيدة الجديدة .

وسيتعدى الخطر ليصل الى نفوس جميع المؤمنين ، حين يرون الناس من حولهم يتركون العقيدة ، ويعودون الى مجتمع الجاهلية ، سعياً وراء غنيمة أو تخلصاً من تبعات وتكاليف .

٢ ـ الوجه الثاني : وهو وجه ايجابي بناء ، لأن المجتمع العقيدي يحتاج الى صلابة لا ينفذ فيها كيد أو تآمر أو مواجهة .

والمجتمع الاسلامي كان قادماً على مرحلة جديدة ، يحمل فيها الدعوة الى خارج الجزيرة العربية ، وسيواجه قوى مختلفة ـ مادية ، ومعنوية ـ ، وهذه القوى تملك السلاح والعدد والاعداد ، وكذلك تملك المغانم الدنيوية من مال ومتاع ومغريات كثيرة .

الروم بكل ما لديهم من مدنية ومغريات ، وبلاد شاسعة تملك ألواناً من رغد العيش .

والفرس وما لديهم من مدنية ومغريات ، وألوان الكيد لعقيدة الله .

ولن يقوى مجتمع مزعزع ، يحوي خلائط من الرجال ذوي

الأهواء المختلفة والمنازع المتضاربة ، والولاءات الجاهلية . لن يقوى على الصمود أمام هذه القوى .

وكان لا بد من تقويم جديد للمجتمع قبل أن ينهض بأعباء المرحلة الجديدة ، وينطلق الى الفتوحات .

وقدّر الله أن تكون محنة الردة ، عانى منها المسلمون ما عانوا ، دفعوا ثمن التقويم والتصحيح ضحايا ودماء وأموالاً ، وقدموا من أجل فرز الزيغ والجاهلية وتحقيق تميز هذا المجتمع عن الجاهلية أغلى التضحيات وأبرزت الردة صلابة المجتمع الاسلامي الأول الذي ربي على محك المحن السابقة ، وجرت له التقويمات المناسبة على مدى السنوات العشر .

وكشفت الردة عن حقيقة التصور الالهي في أذهان المسلمين وسلوكهم حين تحول الى أعمال وحرب حتى لا يتمكن المرتدون من تشويه العقيدة ، أو انتقاص المنهج ، أو ادخال شيء من الجاهلية في الاسلام .

لقد فرزت الردة الضعفاء والمتشككين ، وأصحاب المطامع والزعامات ومن وراءهم من الأتباع والمنتفعين الذين التصقوا بالدعوة طمعاً أو خوفاً .

إن هذا الفرز والتنقية والتصحيح ، ايضاح لمعنى التصور

على صعيد السلوك والولاء ـ إن هذا قوة بحد ذاته .

وإذا كانت الكثرة المرتدة قد خدعت بمجموعها وكثرتها وعدتهـــا ، فإنها في الوقت نفسه ـ وهي بعيدة عن الايمـــان والعقيدة ـ وقد نسيت قانون الحيـــاة الذي يقضي بانتصار الايمان .

وللمرة الأخيرة ـ حينها ـ خاض المؤمنون المعركة ودخلوا في المحنة حتى انتصروا ، وتطهر المجتمع من عوراته وتخلص من أسباب ضعفه وانهياره .

وعاد المجتمع الاسلامي أقوى ممـــا كان ، وازداد صلابة وتماسكاً وعمقاً .

والأهم من ذلك فقد عملت المحنة على جلاء حقيقة الايمان ، وتوضيح معنى الاسلام ، وفهم المرتدون أن الاسلام والايمان متلازمان ، وليسا نطقاً في اللسان ، أو مبـــايعة عابرة ، أو معاهدة سياسية .

وعرفوا أنه لا يمكن أن يلتقي الايمـان مع المطامع ، ولا يعيش الاسلام والجاهلية ، ومحال أن تكون دعوة مع النفاق .

عرفوا ذلك ـ اليوم ـ بالدماء ، والألم والحسرات ، وفهموا

هذه الحقائق وهم يعانون الصراع النفسي وينزفون الدماء .

ورجعوا الى الله تائبين ، يفتحون قلوبهم للايمان ويبحثون عن آثار الجاهلية لتخلع وتلقى في نار جهنم قبل أن يسقطوا في رذائل الشرك ويصيبهم غضب الله عز وجل .

لقد عاد منهم من عـــاد الى الاسلام وهو مطمئن بعد أن حسن اسلامه ، وتبينت لهـــم حقائق المنهج الالهي بتكامله وشموله .

وكان من هؤلاء من أبلى أحسن البلاء في معـــارك الاسلام العظيمة ـ القادسية والجسر ، واليرموك وغيرهـــا ـ فظاهرة الردة ليست ظاهرة مرض ـ في كل وجوهها ، إنه وجه واحد من وجوه الظاهرة .

وإنما هي في كثير من وجوهها ، ظاهرة صحة وتقويم وقوة وبنـــاء .

ولكن الوجه الايجابي لا يمكن أن يظهر إلا حين يضم المجتمع الاسلامي فئة مؤمنة صلبة ، ترتفع فوق المخاوف والمطامع ، وتحافظ على الصدق والاستقامة والتميز وتحقق معنى الاسلام عقيدة وسلوكاً وعملاً ، هذه الفئة هي التي تحفظ هذا المجتمع

من الكوارث ، وتقلب الظواهر المرضية الى عامل بناء وتقوية وتقويم .

والمهمة الأساسية التي انصرف اليها رسول الله ـ وهي سنة في بنـــاء مجتمع العقيدة ـ هي مهمة تكوين القـاعدة المؤمنة الصلبة ، الواعية المتميزة التي تطهرت بالاسلام ، وبرئت من الجاهلية كلها ، فكانت ـ تلك ـ الحملة الدعاة الأمنـــاء لهذه العقيدة الظافرة .

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع